أشهر القصص البوليسية

ف. كوبر

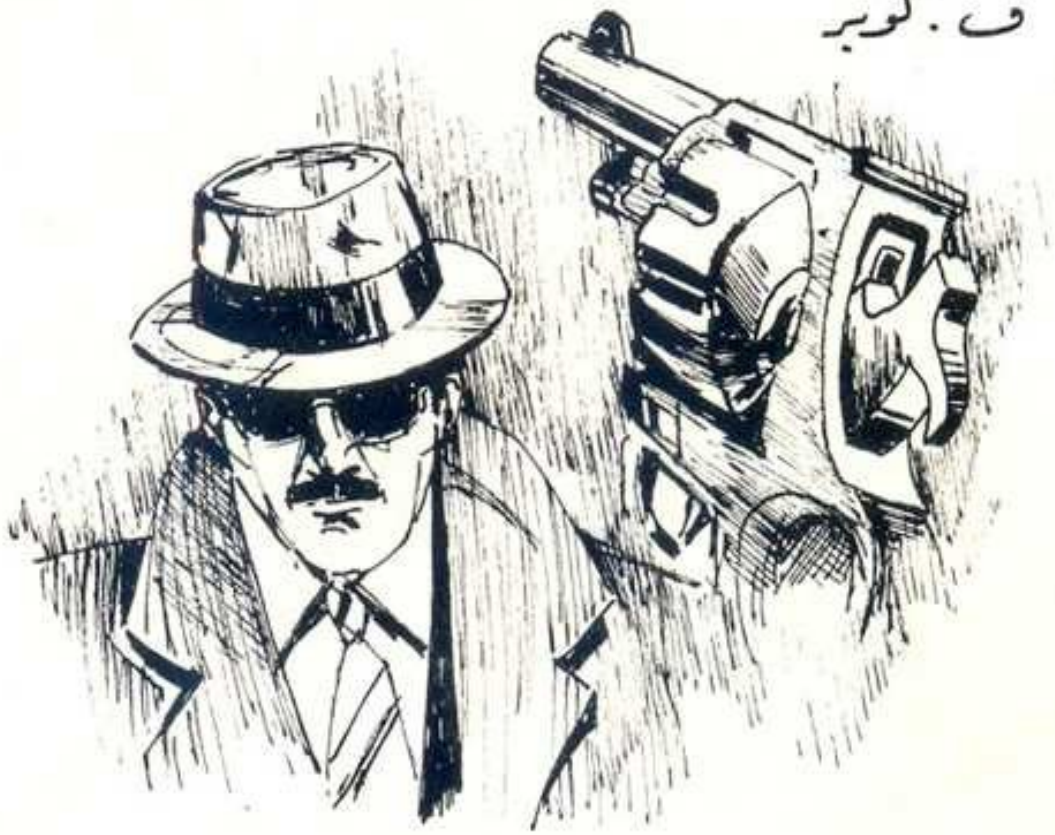

الجاسوس

ترجمة : مي الياس باسيل

دار الهيثم

أشهر القصص البوليسية

الجاسوس

تأليف : ف . كوبر
ترجمة : مي الياس باسيل

دار الهيثم

جميع الحقوق محفوظة
لدار الهيثم

ص.ب: ١١٣/٥٣٣٥
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٨٩

مقدمة

القصة التي نقدمها لقُرّائنا حدثت في اميركا الشمالية في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر اي الفترة التي كانت فيها الولايات المتحدة مستعمرة إنكليزية تناضل ضد الوطن الأم (بريطانيا) للانفصال عنه والحصول على استقلالها .

كثير من العائلات كان ممزقاً بين ولاءين متعارضين ، الإخلاص لإنكلترا وحب الوطن الأميركي الذي استيقظ في قلوبهم . كثيرون لبسوا أقنعة لم ينجح الوقت في إزالتها عنهم . هذا إنسان وُضع في القبر ، ومواطنون يتهمونه بأنه كان عدو الحرية بينما كان هو في الحقيقة احد عملاء الثورة الاستقلالية الأكثر نفعاً . ومواطن آخر يُبدي حماسة شديدة يخفي جواز سفر إنكليزي تحت كدسة من الجنيهات .

تُصَوّرُ قصتنا فترة الصراع المادي والأخلاقي هذه . التي سيتولد منها عالم جديد .

الفصل الأول

مع نهاية سنة ١٧٨٠ كان فارس منفرد يجتاز أحد الأودية العديدة في وستشيستر - في أميركا الشمالية . كان الهواء العاصف الذي يزداد عنفه كل لحظة يحمل دفقات من المطر ويُعلن اقتراب إحدى العواصف التي تدوم عادة أياماً عدة . في اثناء بحثه عن مأوى لحماية نفسه من العاصفة أجال المسافر نظرة خبيرة في الريف المُقفر . حيث يرتفع فقط من مكان إلى آخر كوخ ضيق وبائس وكان من الحذر عدم طلب الضيافة في واحد منها .

في الحقيقة كان سكان تلك المقاطعة الممزقة من الحرب مُجبرين على إعلان حيادهم خوفاً ، مع أن قلوبهم كانت بعيدة عن ذلك تماماً . والفارس الذي كان على علم تام بذلك فكر ، بشيء من النفور ، في انه مُجبر على الالتجاء إليهم لكنه أخيراً

اضطُر إلى الاختباء بسبب تزايد عنف العاصفة . فقرر البحث عن مأوى في أول بيت يصادفه .

لم يأخذ الامر وقتاً طويلاً . وبعد وقت قصير تخطى حاجزاً متهدّماً وقرع بقوة باب كوخ يبدو خرباً ، من دون أن ينزل عن حصانه . فتحت امراة متوسطة العمر عبوسة ، لكنها هلعت عند رؤية الغريب ، فأبقت الباب شبه مغلق ، سائلة بمزيج من الرعب والحشرية عما يريد المسافر . ما كاد يُوَجه إليها جوابه حتى عجلت بالرّد عليه :

ـ لا استطيع القول انني اهتم بإيواء احد الغرباء في هذه الأوقات العصيبة . إنني وحيدة في المنزل مع سيدي العجوز المريض . لكنك ستجد على بعد نصف ميل من هنا بيتاً كبيراً وجميلاً سيستقبلك حتى دون أن تدفع . ومن حسن الحظ أن « هارفي بيرش » لم يعد هنا ، وانه يُصر على التشرد رُغماً عني .

كان الغريب قد حوّل لجام حصانه ، لكنه انتفض عند سماعه هذا الاسم :

ـ ماذا ! هل هذا منزل « هارفي بيرش » ؟

ـ لا اعرف إذا كنا نستطيع القول ان هذا هو منزله لأنه لا يسكنه ابداً او على الأقل نادراً جداً . حتى اننا والده وأنا نكاد لا نرى وجهه من وقت إلى آخر. احْرص على الذهاب في طريق اليسار .

أغلقت الباب فجأة فأسرع الفارس الذي أمَل في الحصول على مأوى أفضل في الانطلاق . رأى بعد قليل منزلاً طويلاً ومنخفضاً مبنياً من الحجر كان مُحاطاً بنباتات كثيفة اعتني بها جيداً ، وكل ما فيه يُخبر عن الرفاهية والطمأنينة .

طرق المسافر الباب دون تردد . ففتح له زنجي عجوز أدخله على الأثر إلى المنزل .

قاده إلى صالة تشتعل فيها نار عظيمة . انحنى أمام عجوز نهض

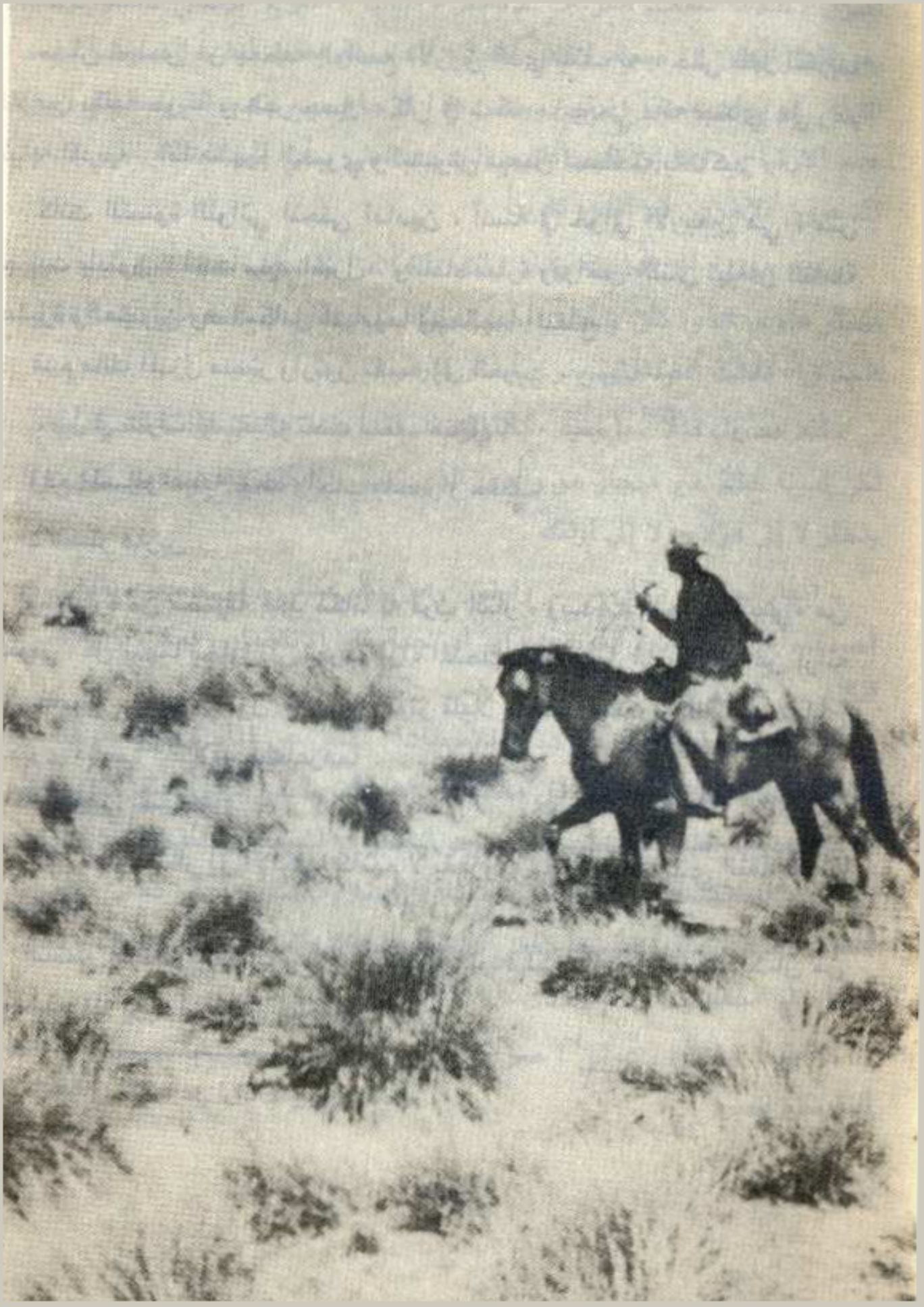

لاستقباله وشكره على الضيافة التي سيقدمها إليه وتقدم للسلام على ثلاث نسوة ينسجن الصوف قرب الموقد .

ما أن تخلص من معطفه الواسع الأزرق الذي يلتف به . حتى ظهر الغريب للأعين بقامة طويلة ومظهر جميل . كان في شكله ما يوحي بأنه جندي على رغم ثيابه المدنية . أمّا مظهره الحيوي والبشوش فيعمل لمصلحته بالتأكيد .

كانت النسوة اللواتي انحنى أمامهن ، آنسة في حوالي الأربعين هي « مس جانيت بليتون » أخت سيد المنزل ، وابنتاه سارة وفرانس اللتان تبلغان الثامنة عشرة والعشرين وهما بكامل شبابهما وجمالهما المتفتح .

قدم مالك المنزل مستر وارتون نفسه إلى الغريب ، وسأله :

ـ مَنْ لي شرف استقباله تحت سقف منزلي ؟

رفع المسافر عينيه ببطء وأجاب باحمرار خفيف :

ـ مستر هاربر .

وبإشارة من مُضيفة اخذ مكاناً له قرب النار ، وبدأت المحادثة بشيء من التوتر . كل منهما يُحاول ان يعرف اراء المتحدث إليه دون أن يكشف عن آرائه الشخصية .خفف وصول العشاء التوتر قليلاً وأخذت صغرى الفتاتين تمازح الكبرى بسبب اختلاف مشاعرهما .

قالت وهي تضحك :

ـ إن سارة تنظر إلى الإنكليز كأنهم لا يُقهرون وانا ليست لدي الثقة نفسها بقيمتهم .

استمع المسافر إليها بروح التسامح والمودة لكن دون أن يُجيب كان من الواضح انه يُريد ان يبقى متحفظاً(*) .

(*) متحفظاً : متكتماً على ارائه لا يُبدي مشاعره .

كانت العاصفة إذاً في أشد قوتها ودفعات من المطر تصفق بعنف على جدران المنزل ، عندما سُمعت ضربات عدة تقرع الباب . أسرع الزنجي العجوز وعاد بعد قليل ليُعلن أن مسافراً ثانياً فاجأته العاصفة يطلب ايضاً الضيافة لهذه الليلة . لم يرغب مستر وارتون برفض هذا الرجاء ، مع انه بدا فريسة لشيء من عدم الارتياح . وما إن ظهر القادم الجديد حتى دعُي إلى العشاء الذي كان المدعوون الآخرون قد انهوه تقريباً .

جلس بجدية إلى الطاولة واخذ يأكل مُلقياً من وقت إلى آخر نظرة ثاقبة على مستر هاربر الذي كان يتأمله ايضاً بانتباه ملحوظ . عادت فرانس وسارة إلى الجدال ، فقالت الصغرى بمرح لمستر هاربر :

ـ لقد حذرتك قبلاً ، يا سيد ، بأننا لسنا دائماً متفقتين على ارائنا السياسية . لكن لدينا حَكَمٌ غير منحاز هو والدي الذي يحب الإنكليز بقدر الأمير كيين ولا ينحاز لا إلى هؤلاء ولا إلى اولئك .

ـ انها الحقيقة ، قال مستر وارتون وهو ينظر مداورة إلى ضيفيه بقلق ، لي اصدقاء اعزاء جداً بين الفريقين وإلى اي جهة مال الانتصار ، يمكن ان يكلفني الكثير من الدموع .

لم يُجب مستر هاربر على هذه الملاحظات . نهض عن المائدة مُبدياً الرغبة في الانسحاب للنوم ،واستأذن من مضيفيه . ما كاد يختفي حتى نهض المسافر الآخر بهدوء ، فتح الباب ليسمع صوت الخطوات المبتعدة واغلقه وسط نظرات الآخرين المدهوشة والخائفة تقريباً . ثم ازال باروكة شعر احمر تخفي شعراً أسود جميلاً وشارباً ضخماً يخفي نصف وجهه ، والظهر المحدودب الذي كان يُظهره في الخمسين من عمره .

ـ أبي ! اختاي ! عمتي ! صرخ الغريب الذي اصبح شاباً جميلاً ، ها قد التقيتكم اخيراً !

ـ لتباركك السماء يا عزيزي هنري ! ترجى الأب بصوت مرتجف ، بينما ركضت الفتاتان نحو اخيهما بدموع التأثر .

هنري وارتون النقيب في الجيش الإنكليزي تجاوز سراً المراكز الأميركية المتقدمة ليزور اهله .

كان الشاهد الوحيد على هذا المشهد الزنجي الذي يخدم عائلة وارتون منذ طفولته ، ويدعى سيزار . قبّل بحنان يد سيده الشاب واختفى مباشرة . عندما عاد إلى الصالة بعد بضع لحظات سمع النقيب يسأل :

ـ من هو إذاً مستر هاربر هذا ؟ اليس عليّ أن اخشى إفشاءه لسري ؟

ـ كلا ، كلا ، سيد هنري ، صرخ الزنجي بحرارة . أنا أت الأن من غرفته حيث وجدته راكعاً . الرجل الذي يصلّي لله يكون شهماً . لا يخون ولداً اتى لرؤية والده العجوز . هذا ما يفعله أحد « الجزارين »(*) ، لا رجل مؤمن . بعد شهادة الاستقامة هذه التي قدّمها سيزار المخلص ، جلست عائلة وارتون قرب النار ، وجمعها تبادُل الأخبار حتى ساعة متأخرة من الليل . فعلياً منذ مدة طويلة لم تُتح مفارقات الحرب لافرادها الاجتماع . كان مستر وارتون يأمل ببقائه على اراضيه مع اخته وإبنتيه خوفاً من سرقة أملاكه . بينما كان الشاب هنري يخدم في الجيش الإنكليزي تحت قيادة الكولونيل « ويللمير » الذي اثر مظهره الجميل وشكله الشهم كثيراً في قلب سارة بكر(*) الأختين .

امّا الصغرى مس فرانس التي تميل مشاعرها لمصلحة الأميركيين ، فربما كانت تتمنى لهم الانتصار بهذا القدر ، بسبب الحب الذي تحمله لأحد ابناء أعمامها الرائد « دانوودي » قائد مجموعة من الجمهوريين ، الذي يعتبر الفتاة كأنها خطيبته .

(*) الجزارون : اسم أعطي لجماعة من المتطوعين الجمهوريين الذين اشتهروا بقساوتهم . ولم تكن الثورة الاستقلالية الأميركية تعترف بهم كجنود رسميين .

(*) بِكْرُ : اي الولد الاول في العائلة .

منذ أكثر من سنة لم ير النقيب وارتون أهله. وبما انه تنكر كما ذكرنا قبلاً ليصل إلى أملاكه ، شاء سوء حظه ان يصل إليها في اليوم نفسه الذي حضر فيه ضيف مشبوه إلى المنزل .

ـ هل تعتقدون ان مستر هاربر لايشك ابداً في امري ؟ سأل النقيب الشاب اخيراً .

ـ كيف يمكن له ذلك ، صرخت سارة ، بينما ابوك واختاك لم يعرفوك ؟

ـ لديه شيء من الغموض وقد تفحصني بكثير من الإصرار ، وليس دون نيّة ما . موت الرائد « اندريه »(*) منذ مدة قريبة يزيدنا قلقاً .

ـ لكنك لست جاسوساً ، يابني ! صرخ مستر وارتون خائفاً . لا يوجد هنا اي دافع للتجسس !

ـ هذا ما يمكن ان يثبتوه . لان للاميركيين حواجز في السهل مررت عليها متنكراً ، ويمكن ان يعتبروا ان زيارتي تخفي مخططات اخرى .

لم تمر هذه الملاحظة دون ان تجعل نهاية السهرة تعيسة ، وانفصلت العائلة بحنان ممزوج بالقلق .

لكن في اليوم التالي ، بما ان العاصفة كانت في اوجها ، والمطر مازال يتساقط بدفعات اكثر عنفاً ، كان من المؤكد ان المسافرين لن يتمكنا من التفكير في مواصلة الطريق . اعرب مستر هاربر عن اسفه لانه سيضطر إلى البقاء في ضيافة مستر وارتون ايضاً . اجاب هذا الأخير بمجاملة على رغم مخاوفه الأبوية . استعاد هنري تنكره تلبية لرغبات والده . حيّا الاثنان بعضهما البعض بصمت مع ان فرانس ظنت انها رات ابتسامة خفيفة على شفتي الغريب . وجلس الجميع إلى الطاولة لتناول الوجبة الأولى .

(*) الرائد اندريه : قبض عليه الاميركيون على انه جاسوس ، وكان يخدم في الجيش الإنكليزي .

قبل أن ينتهوا من الطعام دخل سيزار ووضع رزمة صغيرة قرب سيده بصمت .

ـ ما هذا ياسيزار ؟ سأل مستر وارتون بقلق .

ـ إنه تبغ ، ياسيدي : حمله هارفي بيرش لك من نيويورك .

ـ إذن من الواجب أن ادفع له ثمنه ، قال مستر وارتون ، وهو يرمي نظرة موارية في اتجاه مستر هاربر .

توقف هذا الأخير لحظة عن الأكل بينما كان الزنجي يتكلم ، لكنه بقي غارقاً في تحفظه المعهود .

طلبت سارة الإذن بإدخال البائع المتجول إلى الصالة . اعتذرت عن ذلك بطيبة من مستر هاربر ، وأدخل سيزار البائع بحذر .

كان هارفي بيرش بائعاً متجولاً منذ شبابه . أقام في المنطقة مع والده العجوز منذ أكثر من عشر سنين ، ويحيط بكل تحركاته غموضاً لم يستطع أحد اختراقه . إنما كان هدفاً لحشرية خادمتهم كاتي هاينز التي كانت تأمل يوماً ما في استبدال لقب الخادمة بلقب زوجة هارفي بيرش لأنها اكتشفت بعد التفتيش وعاءً جديداً مخفياً جيداً تحت أحد حجارة البيت مملوء بالقطع الذهبية حتى منتصفه . كان هارفي بيرش يقوم بزيارات ليلية وسرية لموضعه . لكنها لم تتمكن حتى الآن من إقناع المالك السعيد للذهب بالزواج منها .

لم تقطع الحرب تجارة هار في بيرش ، مع أنها جعلت الفريقين يشككان بمجيئه وذهابه . لا بُدَّ أنه عانى اعتقالات كثيرة نجح دائماً في التخلص منها دون أضرار . هكذا استطاع ذلك الصباح على رغم العاصفة من أن يصل الى المنزل ليقُدم خدماته للساكنين فيه .

بناء على ترجي من الفتاتين ، بدأ البائع يفك بضائعه . وبينما كانت العمة

والبنتان يفحصن الحرائر والمطرزات للاختيار حاولن جهدهن معرفة بعض الأخبار عن الحرب .

اختفى النقيب وارتون إلى جانب النافذة ، فيما اخذ مستر هاربر كتاباً ، وتظاهر انه مستغرق في القراءة . لكن في الحقيقة كان الاثنان يستمعان إلى الحديث باهتمام شديد . صادف نظر هارفي بيرش نظرة مستر هاربر فارتجف وبدل سريعاً من تصرفاته .

ـ لا استطيع إلاّ تكرار ما اسمعه من الآخرين ، قال البائع المتجول : يُقال إنه في السهل ، قُطّعت الأفواج النظامية إلى قطع على يد فرقة من الميليشيات المتمركزة في مخازن مبنية من جذوع الاشجار .

ـ هذا ليس ممكناً ، اجابت سارة بإحتقار ، مع انني اعتقد ان العُصاة يستطيعون جيداً الاختباء خلف جذوع الأشجار .

ـ اعتقد ، قال البائع المتجول بهدوء ، ان وضع جذع شجرة بيننا وبين بندقية ما اكثر حكمة من وضع انفسنا بين بندقية وجذع شجرة .

عادت عينا مستر هاربر إلى الكتاب . وقدمت فرانس ببشاشة كأس مشروب لهارفي بيرش .

ـ هل تعرف شيئاً آخر ايها الصديق ؟ قال هنري وهو يتقدم جزئياً خارج ستائر النافذة .

ـ هل سمعتم أن الرائد اندريه شُنق ؟ اجاب هارفي بنبرة ذات مغزى(*) . وتبادل نظرة طويلة مع النقيب الشاب .

ـ هل يُعقل(*)(*) ان تجعل تحركات الجيوش الطُرق خطرة على المسافرين ؟

(*) ذات مغزى : تدل على هدف ما ، لها معنى خفي .

(**) هل يُعقل : اي هل من المعقول ؟

سأل مستر هاربر بدوره .

ـ مضى وقت على وجود الخيالة النظامية في الريف . وعلمت أن خيالة فرجينيا(*) دخلت بدورها إلى المقاطعة . أجاب البائع المتجول بجدية .

ـ هل يؤلفون قوة كبيرة ؟ صرخ مستر وارتون قلقاً .

ـ لم اعدهم ، أجاب هارفي بيرش .

وتولى سيزار تغيير وجهة الحديث . كان يقلب منذ بعض الوقت قطعة من القماش ذات خطوط عريضة صفراء وحمراء على مساحة بيضاء ، وصرخ متنهداً :

ـ هذا القماش جميل جداً ، يامس سارة !

ـ أجل ياسيزار ، يمكن أن يصبح ثوباً جميلاً لامرأتك .

ـ آه ! مس سارة ! ستجعلين قلب العجوز « دينا » يرقص من الفرح .

ابتسمت سارة وسألت عن ثمن القماش .

ـ من أجل صديقتي دينا التي ستشبه به قوس القزح ، لن يكون الثمن اكثر من اربعة شلنات(*) .

ـ هذا ثمن فادح ! قال سيزار محتجاً وهو يترك القماش متأسفاً .

ـ حسناً ! سنخفضه إلى ثلاثة إذا كنت تفضل ذلك ؟

ـ طبعاً افضل اكثر ، عاد الزنجي يقول بفرح . مس سارة تفضل أن تُعطي ثلاثة شلنات وتحصل على اربعة . وبينما كانوا مهتمين بالقماشة ، خطا النقيب وارتون خارج نافذته وسأل البائع المتجول : متى تركت نيويورك ؟

(*) فرجينيا : مقاطعة اميركية جنوبية .

(*) شلنات : جمع شلن عملة صغيرة إنكليزية .

ـ هذا الصباح ، عند انبلاج الفجر .

ـ اليس منذ وقت أطول ؟ كيف استطعت اجتياز الحواجز ؟

ـ لقد اجتزتها هذا كل مافي الأمر ، أجاب هارفي بجفاء وهو ينظر دورياً إلى النقيب ومستر هاربر .

ـ هل يقلقنا العدو إذاً ؟ صرخ مستر وارتون بحدة .

ـ من تقصد بالأعداء ؟ سأل البائع المتجول .

سكت مستر وارتون مرتبكاً ، وتولت مسز بايتون الكلام بهدوء :

ـ كل من يُقلق طمأنينتنا هو عدو لنا .

بينما كان هارفي بيرش يعاود حزم رزمة البضاعة خاصتـه ، أحضر سيزار زوجته دينا لتقدم سيلاً من الشكر لمس سارة ، واكملت فرانس فرحة الزنجية العجوز عندما اعلنت انها ستصنع الثوب بيديها . وخرج البائع المتجول مـع سيزار ، بينما أراح مستر هاربر كتابه على ركبتيه ، ووجّه إلى الفتاة ابتسامة مودة .

الفصل الثاني

قطع مستر هاربر فجأة الصمت العميق الذي ساد منذ رحيل البائع المتجول وقال لهم :

ـ إذا كان النقيب وارتون يحتفظ بتنكره بسببي اطلب منه الاّ يخشى شيئاً ويكشف عن نفسه .

بقيت سارة وفرانس كأنهما مصعوقتان ، وافلتت مس بايتون إبريق الشاي من يدها . لكن هنري اندفع إلى وسط الغرفة والقى بعيداً كل ما يستخدمه للتنكر :

ـ إلى الشيطان التنكر ! صرخ قائلاً . اصدقك من صميم قلبي . لكن كيف عرفتني ؟

ـ هل تعتقد ان هذا لم يكن كافياً لاكتشاف امرك ؟ قال هاربر مبتسماً وهو

يشير بيده إلى صورة كبيرة تُمثل النقيب الإنكليزي الشاب بثيابه العسكرية .

ركضت فرانس نحو الغريب وقد احمرت من التأثر واخذت يده :

ـ لن تخون اخي ! قالت بنبرة متوسلة . تأملها مستر هاربر برهة بمحبة ، ثم اجاب بجدية :

ـ لا يجدر بي ذلك ولا أريد ذلك ، ولا استطيع . ليباركك الرب ، ياطفلتي !

حيّا مضيفيه وانسحب إلى غرفته .

خلافاً للأب الذي ظلّ قلقاً جداً ، ارتاحت العائلة بأجمعها لهذا الحادث ، وعاد الشباب إلى الحديث بحرارة . داعب هنري سارة بسبب الميل الذي يفترض انها تحمله للكولونيل «ويللمير» ، وفرانس على المودّة التي تكنها للرائد «دانوودي» .

انقضى النهار بسلام مع أن سيزار القى الحذر في النفوس عندما حمل في المساء خبراً انه سمع همسات مخنوقة في غرفة مستر هاربر الذي يشغل غرفة في احد الأجنحة التي على طرف المنزل ، وكان سيزار يعمل كأنه جهاز نظامي للتجسس حرصاً على سلامة سيده الشاب .

لكن وصول مستر هاربر بروحه التي توحي بالبشاشة والإخلاص ، اعاد الثقة إلى كل القلوب ، وظن الجميع ان سيزار قد اخطأ .

في نهار اليوم التالي اجتمعوا لشرب الشاي ، وكانت العاصفة المتواصلة منذ يومين قد سَكَنت بالسرعة نفسها التي انفجرت فيها . توقف المطر وهدأت الريح وخرجت العائلة بأكملها إلى الباحة التي تطل على الحديقة .

ـ أي مشهد رائع ! قال هاربر بصوت منخفض ، وهو يتأمل الريف الذي أضاءه فجأة شعاع من الشمس . يمكن ان تنتهي هكذا في مساء من السعادة والانتصار كل ايام الالم التي تمزق وطني !

استمعت إليه فرانس وقلبها مملوء بالفرح .

ـ رجل كهذا لا يمكن ان يخوننا ! فكرت في نفسها . لا يمكن ان تنتمي افكار كهذه الاّ إلى نفس نبيلة .

حينذاك شوهد هارفي بيرش يتقدم مصارعاً آخر دفعات الهواء لتحية العائلة المجتمعة بسكون . سأله مستر وارتون بطيبة عن اخبار ابيه العجوز .

ـ إنه يحتضر بسرعة ، اجاب البائع المتجول بصوت مرتجف . ماذا نفعل امام العمر والحزن ؟ لكن انظروا، اضاف وهو يمدّ يده نحو البحر الذي يُشاهد من فسحة بين التلال ، انظروا إلى تلك السفن الكبيرة التي تتقدم بسرعة : لابد ان الأفواج الملكية في طريقها إلى هنا .

والقى نظرة قلقة على مستر هاربر .

ـ لتكن مشيئة الله ! صرخ النقيب . لن اكون مغتاظاً لو رافقوني . لكن الا يمكن ان تكون هذه فرقة من الأميركيين ؟

ـ يبدو لي انها افواج ملكية ، تمتم هارفي كأنه يتحدث إلى نفسه . لابُدَّ انهم انطلقوا قبل العاصفة واحتموا في الجزيرة . إن خيالة الثوار في الطريق إلى هنا ولن يتأخروا عن القتال في الجوار .

استمع إليه هاربر بأكثر ما يكون من الهدوء . لكن عندما توقف عن الكلام ، استدار المسافر نحو مضيفه وقال له ان أعماله لا تحتمل اي تأخير وانه سيستفيد من ذلك المساء الصافي ليتقدم بضعة اميال . جرت استعدادات رحيله بسرعة . بعد بضع لحظات تقدم هاربر نحو مستر وارتون ليشكره على ضيافته . طلب منه العجوز أن يحافظ على سر النقيب الشاب فأجاب مستر هاربر بهدوء :

ـ لم اعرف شيئاً في عائلتك لم اكن اعرفه قبلاً . لكن يمكن ان يكون من حسن حظ ابنك انني علمت بالدوافع التي ساقته إلى هنا ، ومن الممكن ان اجد الفرصة لأبدي لكم شكري على الاستقبال الذي حصلت عليه بينكم .

مرّت بضع دقائق بصمت بعد رحيل الغريب . أخيراً اقترب البائع المتجول من النقيب وسأله :

ـ هل سترحل هذا المساء أيها النقيب وارتون ؟

ـ كلا : يابيرش . هل تريدني أن أترك عائلتي بسرعة عندما يكون من الممكن ألّا أراها أبداً ؟

ـ أعتقد أن «الجزارين» يقطعون الحقول . إذا صدّقت قولي تختصر زيارتك .

ـ لاشيء غير هذا ؟ إذا التقيت هؤلاء الأوغاد ، سأخلص نفسي ببضع جنيهات . كلا يا هارفي سأبقى هنا حتى صباح الغد .

ـ لم يستطع الرائد اندريه النجاة ببضع جنيهات ، أجاب البائع المتجول بجفاء . والتصريح بالمرور الذي قدمته إليك لا يمكن أن يكون صالحاً إلّا لمرة واحدة . لكن بما أن الأمر كذلك ، لم يعد عندي سوى كلمة واحدة لأضيفها : خذ حذرك جيداً من فرجيني طويل له شاربان ضخمان . أعتقد أنه ليس بعيداً والشيطان نفسه لا يستطيع خداعه . أنا نفسي لم أنجح في ذلك إلّا مرة واحدة .

حيّاهم البائع المتجول وابتعد بخطوات كبيرة ، تاركاً الفتاتين مضطربتين قليلاً من الخشية التي أيقظها بأرائه . إنما مرّت السهرة والليلة بسلام وفي اليوم التالي صباحاً اجتمعت العائلة بأكملها حول مائدة الفطور .

بينما كانت فرانس تتبادل بمرح بعض الطرائف مع أخيها ، تراجع الزنجي العجوز الذي اقترب من النافذة فجأة مطلقاً صرخة رعب :

ـ اهرب ، ياسيد هنري ، اهرب ! وصلت خيالّة الثوار ! ها هم !

ـ اهرب ؟ ردد الضابط وهو ينتصب بكبرياء . ليس هذا من صفات مهنتي يا معلم سيزار !

تقدم بسكون نحو النافذة التي كانت العائلة مجتمعة بقربها ، وقد استغرقت في القلق .

على مسافة ميل تقريباً ، يُشاهد حوالى خمسين من الجنود ينزلون الوادي . وإلى جانب الضابط الذي يسير على راسهم، يتقدم رجل يلبس كالفلاحين اشار بيده في اتجاه المنزل . توجهت فرقة صغيرة عندها مباشرة في الاتجاه المشار إليه ، ووصلت بسرعة إلى منزل هارفي بيرش ، أحاطت به بسكون ودخل إليه جنديان او ثلاثة جنود . شوهدوا يخرجون بعد قليل تتبعهم كاتي هاينز التي كانت تجادل بحركات واضحة من يديها. وبما ان بقية الفرقة قد وصلت عند هذا الحدّ ، استجوب الضابط المراة بسرعة ، ثم صعدوا جميعاً كلٌ على حصانه واندفعوا قفزاً إلى منزل وارتون .

حتى ذلك الوقت لم يخطر لأحد وسيلة ما لإخفاء هنري . فات الأوان ، ليتمكن من الانسحاب إلى الغابات دون ان يراه أحد ، وقد رفض بكبرياء كل المخابىء التي اقترحها عليه سيزار ، كأنها لا تليق به . كان وجهه رمادياً من الهلع . اخيراً سمح لأختيه بأن تُلبسانه على عجل التَنكر الذي وصل به والذي حرص الزنجي على الإحتفاظ به .

ما كادت هذه العملية تنتهي بشكل غير تام ايضاً ، حتى وصل الجنود امام المنزل واحاطوا به .

قفز الضابط إلى الأرض ودق الباب بعنف . ذهب سيزار ليفتح ببطء يعبر عن انه مرغم . وقد حاول أهل البيت جهدهم ليبدوا غير مبالين بالامتحان الذي سيمر بعد قليل .

دخل ضابط بقامة كالمارد إلى الصالة وحيّا السيدات بتهذيب عظيم . كانت عيناه ثاقبتين، صوته قوي وشاربان ضخمان يغطيان وجهه . خُيّل إلى الفتاتين

انهما تنظران إلى الرجل الذي وصفه هارفي بيرش بشكل مهيب ، فشحبتا من التأثر .

ـ لا تهلعن ، ياسيداتي ، قال الضابط عندما رأى خوفهن . لا اريد من هنا إلاّ بعض الأجوبة الصريحة على اسئلتي وسأنصرف بعدها .

ـ بماذا يتعلق الأمر ، ياسيد ؟ سأل مستر وارتون بقلق .

ـ هل استقبلتم أحد الغرباء هنا في اثناء العاصفة ؟

ـ السيد الذي تراه مرّ إلى منزلنا ولم يرحل بعد .

حيّا الضابط هنري ، وهو ينظر إليه بانتباه عظيم . واعطى ملاحظة بشي من الجدّية الساخرة :

ـ انا آسف جداً ، ياسيد ، إذ اراك مريضاً .

ـ انا مريض ؟ لست كذلك ، ردّ هنري .

ـ اعذرني ، قال النقيب بكثير من هدوء الأعصاب ، لكن عندما رايت شعراً جميلاً اسود كهذا مُغطى ببباروكة خرقاء كهذه ، ظننت انك في حاجة إلى الحفاظ على راسك دافئاً .

لم يستطع مستر وارتون أن يمسك انينه ، وعندما رفع النقيب يده دون انتباه إلى شعره ، شعَر ان اختيه تركتا بسبب الاستعجال خصلة سوداء تمر من تحت الباروكة . ابتسم العسكري بمكر وعاد يتكلم مع مستر وارتون :

ـ إذن ، الم تستقبل ، ياسيد ، هنا منذ بضعة ايام احد المدعوين مستر هاربر ؟

هذا السؤال اراح قلب العجوز من حمل ثقيل .

ـ مستر هاربر ؟ عاد يقول باستعجال . اعذرني لقد نسيته . لقد رحل . وإذا كان في طباعه شيء يدعو إلى الريبة فنحن نجهل ذلك تماماً ، لأننا لم نره ابداً بعد ذلك .

ـ ليس عليكم أن تخشوا من طباعه شيئاً ، أجاب العسكري بجفـاء . متى رحل ؟ إلى أين ذهب ؟

ـ انصرف على حصانه مساء البارحة في اتجاه الشمال . ظهرت ابتسـامة الارتياح على وجه الضابط . ثم خرج من المنزل ، أعطى الأوامر فترك عدداً من الجنود الوادي خبباً على خيولهم في اتجاهات مختلفة . هنّأت عائلة وارتون نفسها لأنها تحررت من ضيوفها المزعجين . عندما عاد الضابط إلى الصالة واقترب من النقيب وارتون .

ـ الآن وقد انتهيت من العمل الأساسي الذي ساقني إلى هنا ، قال بالجدّية الساخرة نفسها ، هل تسمح لي بفحص نوعية هذه الباروكة ؟

قدّمها إليه هنري بمظهر مرتبك .

ـ ها هي ياسيد ، ارجو أن تناسب ذوقك ؟

ـ افضل اكثر اللون الطبيعي لشعرك . لكن لا بُدَّ أن هذه الضمادة السوداء التي على وجهك تخفي جرحاً عظيماً ؟

ـ أنت ترى الأشياء عن قريب ، أجاب النقيب وهو ينزع قطعة المخمل التي تغطي وجهه .

ـ أقسم بشرفي ياسيد أنك تفوز بالخداع دون منازع . هل استطيـع أن أرجو منك أيضاً نزع ذلك الـرداء السيء الذي يخفي ثيابك الزرقاء ؟

أطاع الرجل بأكثر ما يكون من هدوء الأعصاب . تأمله الضابط برهة بالجدّية الساخرة نفسها وتابع يقول وهو يُحييه :

ـ إذن سيكون في إمكاننا التعارف . أنا النقيب لاوتون من خيالة فرجينيا .

ـ وأنا ياسيد النقيب وارتون من السرية السادسة التابعة لجلالتها .

عندها انمحت الابتسامة عن مـلامح العسكـري وأجاب بـطريقة فيهـا نيّة واضحة :

ـ أيها النقيب وارتون ، إنني أرثي لك من صميم قلبي .

ـ إذا كنت تشفق عليه لماذا تحاول إقلاقه ؟ صرخ الوالد وقد خرج عن طوره . إنه ليس جاسوساً . لم يأت إلى هنا متنكراً إلا لرؤية العائلة . وليس من التضحية أنني مستعد لأي شيء من أجل سلامته .

ـ يا سيد ، أجاب لاوتون بكبرياء، انت تنسى إلى من تتحدث. لكن المحبة التي تكنّها لابنك تشكّل عذراً لك . يانقيب وارتون ، هل كنت تجهل أن حواجز جيشنا كانت في السهل ؟

ـ لم أعرف ذلك إلّا عندما وصلت إليه وبعد فوات الآوان لكي أتراجع ، وإلّا ما كنت تركت نيويورك .

ـ كل هذا يمكن أن يكون صحيحاً . لكن مسألة الرائد اندريه دعتنا إلى اليقظة . سيقرر الرائد دانوودي مصيرك .

ـ دانوودي ! صرخت فرانس وهي تزفر بارتياح . والحالة هذه ليس على هنري أن يخشى شيئاً . ليتمجد الرب !

ـ أتمنى ذلك ، اجاب لاوتون . لكن بعد إذنك سننتظر قراره . لقد أرسلت إليه رسولاً ليخبره بما حصل ولا اشك في انه الآن في الطريق إلى هنا .

تلّون وجه فرانس بلون زهري خفيف ، ورغبة من مستر وارتون بمصالحة الضابطين دعاهما إلى مشاطرته طعام العائلة . عندها جلس النقيب لاوتون واثنان من معاونيه إلى الطاولة ، بعدما وضعوا حراساً وارسلوا دوريات في كل الجوار لتأمين سلامة الكتيبة .

عند نهاية الوجبة ، استعلم لاوتون عما إذا كان هناك بائع متجول يُدعى بيرش يسكن في الوادي .

ـ إنه لا يأتي إلى هنا حسبما اعتقد إلّا نادراً، ونحن لا نراه أبداً ، أجاب مستر وارتون بسرعة .

ـ هذا غريب جداً ، قال نقيب الخيالة وهو ينظر إليه بإصرار . بما أنه يعيش هنا ، سيكون طبيعياً جداً أن يأتي لابراز بضاعته أمام السيدات . أنا متأكد أنهن دفعن من أجل تلك الحرائر التي اراها هناك ضعف الثمن الذي طلبه .

استدار مستر وارتون ورأى بانزعاج أن القماش الذي اشترته ابنتاه الليلة السابقة بقي في الشقة .

عاد لاوتون يقول مبتسماً :

ـ أريد أن أخلّص مستر بيرش من عاداته السيئة . لو وجدته في بيته لوضعته محتجزاً في مكان آمن .

ـ ولماذا لا تشنقه إلى جذع ما أمام بيته ؟ سأل أحد الضباط الشبان بهدوء .

حقد النقيب لاوتون على البائع المتجول يعود اساساً إلى أن هارفي كان ماهراً إلى حد أنه أفلت من بين أصابعه بمهارة لم يستطع مسامحته عليها . وكان قد إعتقله قبل بضعة أشهر .

عند انتهاء الطعام ، أعلن صوت البوق في الخارج وصول الرائد دانوودي وأسرع الضباط الفرجينيون لاستقباله .

ركضت الفتاتان أيضاً أمامه وخفق قلب فرانس بشدة عندما رأت خطيبها الذي قفز عن الحصان أمام الباحة ، مصغياً إلى تقرير النقيب لاوتون . خرجت بسرعة من المنزل ، مدت يديها الاثنتين للرائد وادخلته إلى حجرة مجاورة لتلك التي تجتمع فيها العائلة .

ـ يا عزيزي دانوودي قالت له بحنان ، أطلب انتباهك التام إلى موضوع خطير جداً يجب أن أحدثك عنه . الآن ينتظر أخي قرارك لتُعاد إليه الحرّية أو يُساق إلى موت محتمل .

ـ أخوك ؟ أجاب دانـوودي وقد شحب لونـه . ماذا تقصـدين يا عـزيزتي فرانس ؟

ـ الم يخبرك النقيب لاوتون بأنه اوقف هذا الصباح هنري على أساس انه جاسوس ؟ تمتمت فرانس وهي ترفع في اتجاهه عينين كأنهما تنتظران حكماً بالموت او بالحياة .

ـ لقد اخبرني انه اوقف نقيباً من الكتيبة السادسة متنكراً . لكنني كنت اجهل انه اخوك ، قال الرائد مضطرباً .

ـ دانوودي ، لماذا انت متأثر إلى هذا الحد ؟ انت لن تتخلى عن صديقك بالتأكيد ، شقيق تلك التي تريدها زوجة لك ؟

ـ يا فرانس العزيزة لا توجّهي إليّ تأنيباً كهذا . اود لو اقدم حياتي من أجلك ومن اجل عائلتك . لكن هل في إمكاني خيانة واجبي كجندي ؟ ستحتقرينني لو كنت قادراً على ذلك إنما دعينا لا نهلع هكذا . عندما احصل على معلومات افضل ، سأنظر إذا كان علينا ان نعتبر هنري اسير حرب ، او ترك الحرية له بناء على وعدٍ منه بعدم الهرب .

عندها عاد الأمل إلى قلب فرانس ، وادخلت خطيبها إلى الصالة حيث كانت العائلة كلها مجتمعة . رحّب كلٌ بدوره بالرائد بمودة واسرع هو يستجوب صديقه :

ـ قل لي ياهنري ، لماذا وجدك النقيب لاوتون متنكراً هنا ؟

ـ أيها الرائد دانوودي ، كان هذا لئلا اخاطر بأن أُعتقل كسجين حرب عندما حضرت لأرى اهلي .

ـ إذن ، لم تتنكر إلّا عندما رايت فرقة لاوتون قادمة ؟ سأل دانوودي بحماسة .

ـ طبعاً صرخت فرانس ، سارة وانا عملنا على وضع زيّه التنكري عندما راينا الجنود قادمين .

ـ واستخدمتم لذلك ما وقع تحت ايديكم ؟

ـ كلا ، أجاب هنري بترفع . انطلقت من نيويورك متنكراً ، وكنت قد قررت العودة بالطريقة نفسها .

ـ لكن ماذا عن حواجزنا ؟ فرقنا التي في السهل ؟ سأل دانوودي وقد شحب لونه .

ـ مررت عليهم متنكراً بفضل جواز مرور اشتريته ، ويحمل اسم «واشنطن »(*) .لا أعتقد ان التوقيع مزوّر .

ـ كيف حصلت على هذه الورقة ؟ قال الرائد وهو يتفحص الورقة بانتباه .

ـ لا أعتبر أن للرائد دانوودي الحق في طرح هذا السؤال عليّ ، أجاب هنري ببرودة .

ـ اعذرني يا سيد ، الأرجح ان تأثري أملى عليّ سؤالاً غير مناسب . التوقيع ليس مزوراً . لكن يداً أخرى أضافت اسمك . هل يوجد إذاً خونة بيننا ؟ على اي حال أيها النقيب وارتون ، واجبي لا يسمح لي بمنحك الحريّة بناء على وعد منك . يجب أن تتبعني إلى مركز القيادة العامة .

ـ هذا ما كنت أتوقعه أيها الرائد دانوودي ، أجاب الأسير بهدوء ، واقترب من أبيه مستأذناً إياه .

ركضت فرانس منزعجة نحو خطيبها وقالت بصوت متوسل :

ـ صدقني إن هنري بريء ، ليس مذنباً إلّا لقلة حذره . أوه ! أيها العزيز دانوودي ، أعد الحرية إلى أخي وأنا مستعدة لأكون زوجتك هذا اليوم ، بما انك كنت تطلب مني ذلك منذ زمن طويل .

ـ استحلفك يافرانس الّا تزيدي من الكلام إذا اردت عدم تعذيبي ، أجاب

(*) واشنطن : اي جورج واشنطن رئيس الولايات المتحدة . اصبح رئيساً بعد الاستقلال .

الرائد باضطراب . ربما لن يُقَدَّم اخوك إلى المحاكمة . لن اوفّر الوسائل ولا التوسلات من أجل إنقاذه ، واستطيع القول أن لي بعض الاعتماد على واشنطن حسبما أعتقد .

انفجرت فرانس باكية وخرجت من الحجرة وهي تنتحب . أراد الرائد اللحاق بها للتخفيف من يأسها لكنه اصطدم في الممشى بطفل يرتدي أسمالاً(*) ويضمّ إلى قلبه بحنان لعبة جديدة ودسّ له في يده رقعة من الورق . بعدها هرب مسرعاً مثل الغزال قبل أن يتمكن من استجوابه . فتح دانوودي الورقة وقرأ هذه الكلمات ، المكتوبة بخط يكاد لا يُقرأ :

« المجموعات النظامية على مسافة خطوتين ، خيالة ومشاة » .

انتفض دانوودي ولم يعد يفكر إلاّ بواجباته العسكرية . ركض إلى الخارج حيث وجد لاوتون منشغلاً بسرجه ، بينما عاد الخيالة المتمركزين على مسافة قريبة بكل سرعتهم نحو المنزل . أعطى الرائد الأوامر اللازمة مباشرة .

بعض هؤلاء الرجال هدموا بسرعة السياج والنباتات الكثيفة التي يمكن أن تزعج تحركات الخيالة . فرقة أخرى كمنت بناء على أوامر النقيب لاوتون خلف إحدى التلال . وجماعة الأدلاء توغلت في الغابة الكثيفة التي تحاوط الوادي .

خلال هذه التحضيرات ، كان سكان المنزل يشعرون بكل أحاسيس الشك والأمل والخشية التي يمكن أن تحرك قلباً إنسانياً . كان القلق ينهش مستر وارتون خوفاً على مصير أولاده وممتلكاته . هنري يغلي من الغضب ، لأنه لا يستطيع المشاركة في المعركة ولأنه وجد نفسه ممنوعاً عن التحرك كأقسى ما يكون .

لكن بما أن النقيب لاوتون ترك حارسين كانا لا يبعدان نظرهما عنه ، لم

(*) الأسمال : ثياب قديمة ممزقة .

يستطـع سوى التمني بنجاح أصدقائه .

أما بالنسبة إلى « مس بايتون » وسارة ، فقد أبقاهما خجلهما في قلق مستمر ، وفرانس وقفت قرب النافذة ترتجف من الهمّ ، حيث تستطيع رؤية دانوودي ، ولم يكن نظرها موجهاً إلاّ إليه ، وسط الأحداث التي ستحصل . قررت أخيراً أن تناديه لحظة إلى جانبها وكتبت بسرعة بضع كلمات على ورقـة ، كلفت سيزار بحملها إلى الرائد على التو .

خرج الزنجي العجوز من المنزل ، عبر باباً خلفياً ووصل إلى الحقل حيث يوجد جرّاح الكتيبة الذي كان منشغلاً جداً بإخراج أدواته وتطهيرها ، نظراً إلى المعركة التي يتم التحضير لها . اقترح على سيزار ممازحاً بأن يقطع له أحد أطرافه ، فأسرع الزنجي إلى المنزل مرعوباً وأسنانه تصـطك . لكنه أوصـل الورقة إلى الرائد دانوودي .

وصل هذا الأخير مهرولاً على حصانه ، قفز إلى الأرض لحظة ، وتلقّى فرانس الباكية بين ذراعيه .

ـ دانوودي ، ستخاطر بنفسك في معركة . تذكر انه يوجد قلب سعادته تتعلق بحياتك . أعرف انك شجاع . حاول أن تكون حذراً .

ضمها دانوودي إلى صدره وأراد أن يجيبها فإذا بصوت البوق يدوّي في أحد أطراف الوادي . عندها انتزع نفسه من بين ذراعي فرانس ، اندفع على سرجه وركض نحو ميدان المعركة .

ارتمت الفتاة على كنبة ودفنت رأسها تحت الوسائد وغطت وجهها بوشاحها لتمنع ضجيج المعركة من الوصول إليها قدر الامكان .

الفصل الثالث

خلال سير الحرب بأكملها ، لم يُرسل من بريطانيا العظمى إلى أميركا إلّا لواء واحد من الخيالة النظامية . كانت تتألف حسب الحاجة فرقٌ وتشكيلات منفصلة وجيش من المرتزقة . على العكس كانت الخيالة الأميركية مؤلفة من أفضل جيوش المستوطنات اختيرت بعناية ويحركها اندفاع شديد . وكان الانكليز يكتفون بالتمسك بالمرافىء والمدن الصغيرة ، بينما الجيوش الاميركية الصغيرة تسيطر على داخل البلاد بأكمله .

كانت فرقة « دانوودي » تفوقت مرات عدة وتنتظر بفارغ الصبر لحظة لقاء العدو مجدداً . حكم الرائد بطرفة عين أن الأفضلية ستكون له وقرر أن يستفيد من ذلك . تظاهر بالتراجع فشدّ وراءه خيالة العدّو . ما أن أصبحت هذه الأخيرة متورطة جداً لا تستطيع التراجع ، حتى استدار على أعقابه بجرأة وهجم يشاركه

في ذلك النقيب لاوتون الذي خرج من كمينه في اسرع ما يمكنه .

انكفأت خيالة العدو تحت تأثير الصدمة ، وتفرقت في كل الجهات . لكن عدداً منهم نجح في التجمع خلف المشاة الانكليز الواقفين في نظام مرصوص على مسافة قليلة . اثنان من الخيالة اسقطا عن فرسيهما هربا إلى الحقول المجاورة للمنزل وحاولا الاستيلاء على حصانين مربوطين إلى سياج من الأشواك هما حصانا الخفيرين المكلفين بحراسة الأسير ، النقيب وارتون . ركض الذي يراقب في الخارج بسرعة منادياً بصرخات عالية رفيقه الجالس في الصالة الذي قفز إلى الشباك واطلّ حتى منتصف جسده إلى الخارج ، محاولاً إخافة السارقين بتهديداته وشتائمه .

بأسرع من البرق أمسك هنري دفعة واحدة حارسة من رجليه ودفعة من الشباك على العشب. ركض سيزار وأوصد باب المدخل. نهض الفارس حالاً فوجد النافذة والباب مقفلين . خلال هذا الوقت كان رفيقه يناديه بأعلى صوته فانتهى بالركض معه لملاحقة هذين الشقيين اللذين هربا بأحد الحصانين .

فتح سيزار الباب بسرعة وهو يدل سيده الشاب على الحصان الثاني الذي يسير بهدوء ، صرخ :

ـ اركض انت الآن ، ياسيد هنري ، اركض بسرعة !

ـ نعم ، قال النقيب وهو يقفز بخفة الى السرج ، وليباركك الله ، يا سيزار!

انطلق بسرعة البرق واغلق سيزار باب المدخل بقفل مزدوج ، بينما كان مستر وارتون الذي اخرسه القلق يمد نحو ابنه يداً مرتجفة .

من حسن حظ هنري ان النقيب لاوتون كان منشغلاً بمراقبة صف المشاة الانكليز ، المرابط على ضفة النهر بواسطة منظار للجيب . اطلق الشاب وارتون العنان لحصانه وكان هنري يُهنيء نفسه لأنه استعاد حريته ، عندما سمع صوتاً يناديه بقوة :

ـ برافو ! أيها النقيب ، برافو ! استدر الى الشمال قبل ان تقطع النهر .

فوجىء هنري بالصوت والقى نظرة إلى الجهة التي اتى منها فراى هـارفي بيرش جالساً على طرف صخرة ناتئة وصُرّة بضائعه عند رجليه مُلوحاً بقبعته بترحاب . حيّاه هنري بيده واتبع نصيحته فوصل إلى الجسر الذي كان الانكليز يحرسونه ، تحت امرة الكولونيل « ويللمير » .

ـ النقيب وارتون ! صرخ هـذا ، بلباسـك الأزرق على حصـان فارس من المتمردين ! هل نزلت من السماء بهذا التجهيز ؟

ـ شكراً لله ، ها انا في امان ! أجاب هنري لاهثاً . قبل خمس دقـائق كنت اسيراً ومُهدداً بالشنق .

سرد مغامراته للضباط الذين حاوطوه .

ـ أُهنئك ، ردّ « ويللمير » . حضّر نفسك لمساعدتنا وسأمنحك قريباً اسلوباً نبيلاً للإنتقام .

ـ ربما سيكون من الحذر الشديد عدم اجتياز النهر للدخول في سهل مكشوف ، امام خيالة متحمسة إثر نجاحها وتحت إمرة الرائد دانوودي .

ـ بالتأكيد انت لا تريـد ان ننسحب أمام هـذه الخيالة المشهـورة ، أجاب الكولونيل بترفع ، دون أن تحاول إزاحتها عن مكانها ! أيها النقيب وارتون ، اطلب خدماتك كمساعد .

هزّ هنري راسه غير مؤيد لتحرك يشعرفيه بالتهور ، إنما حضّر نفسه بسرعة للقيام بالمهمات التي كُلّف بها .

خلال تلك المحادثة ، نجح الرائد دانوودي بجمع جنوده المشتتـين . وضع الأسرى الذين قبض عليهم في مكان آمن ، وكان يتحضّر لسحب القسم الأكبر من قواته تاركاً مفرزة قوية في المكان لمراقبة تحركات الانكليز ، معتقداً انهم سيكونون

حذرين جداً كي لا يمنحوه فرصة نجاح ثانية . كان النقيب لاوتون يستمع إلى ارائه رغماً عنه ، ويحاول بواسطة منظاره اكتشاف طريقة ما لمهاجمة العدو بنجاح .

فجأة صرخ :

ـ ماذا يعني هذا ؟ ثوب أزرق وسط كل هؤلاء السادة الذين يرتدون الأحمر ! انا متأكد كما أتنفس الآن ، أنه صديقنا النقيب وارتون الذي وجد طريقة للهرب من يد اثنين من أفضل رجال الخيالة التي ترافقني !

بَدَّل هذا الخبر خطط الرائد دانوودي تماماً . فهم أن إفلات السجين يمسّ بسمعته الشخصية ، وبحث ايضاً عن طريقة للهجوم على العدو بحماسة تعادل حماسة لاوتون . أمام هذه الحوادث ، التأم المشاة الانكليز وبدأوا يتوزعون بانتظام أمام أنظار الخيالة الأميركية .

ـ إلى خيولكم ! إلى خيولكم ! صرخ دانوودي وردد لاوتون هذا الأمر بصوت كالرعد .

بينما كان الصفّ الانكليزي يتقدم ببطء كأنه في عرض عسكري ، أطلقت طليعة الجنود ناراً قوية وقاتلة ، حتى أن الكولونيل « ويللمير » اضطر الى إعطاء الأمر لاثنتين من فرَقِهِ بإزاحة العدو من كمينه . استغل دانوودي فرصة الارتباك الخفيف الذي نتج عن هذا الأمر للاندفاع فأدى هجومه إلى عزل قسم من مشاة العدو فوقع « ويللمير » نفسه الذي أوقعته شراسة المهاجمين عن حصانه أسيراً لدى الرائد .

من جهة ثانية ، تلقى وارتون الذي يرافق الجنود المكلفين بصَدّ الطليعة طلقة نارية في يده اليمنى . عندما تعرف حصانه إلى صوت النفير الفرجيني وثب وحنق واندفع بفارسه إلى وسط الجنود الأميركيين ، حيث تأكد لاوتون أنه هو ما أن انتهى الهجوم حتى قاده إلى الخلف صارخاً :

ـ أن الحصان يعرف القضيـة العادلة أفضـل من الفارس . أيهـا النقيب وارتون ، أهلاً بك وسط أصدقاء الحرية .

احرزت الهجمة الثانية للأميركيين نجاحاً أقل . صدّها الانكليز الذين كان لهم الوقت لْلتجمع . انقلب النقيب لاوتون والملازم « سنكلر » عن حصانيهمـا وجرحا معاً . لحسن حظ الفـرجينيين وصـل الرائد دانـوودي في تلك اللحظة الحرجة . أمر بهجوم ثالث حالاً فكان هذا الهجوم كاسحاً فكنس السهل من كل الأعداء الموجـودين فيه . كـل من لم يسقط بسيف الغـالب بحث عن ملجأ في الغابات . اقتاد دانوودي فرقته إلى مسافة قريبة وبدأ يرفع الموتى والجرحى .

قام العريف المكلّف باقتياد النقيب وارتون إلى الخلف وقدم العناية له ، وقاده بسرعة إلى الحقل الذي كان جراح الكتيبة فيه . وهو رجل طويل صارم يمضـغ سيجاراً ويداه قد اكتستا بالدماء . كان راسه الأصلع عارياً ، لكن بعض الخصُل من باروكته تخرج من جيب سرواله .

ـ ها هو الطبيب ياسيد ، قال العريف لهنري . سيُعالج ذراعك بلمح البصر .

ترك أسيره لعناية الطبيب وانطلق على حصانه لينضم إلى رفـاقه . اقتـرب وارتون من الجراح الذي كان يتأمل بانتباه شديد جسداً ممدداً عند رجليـــه ، وهو يتمتم :

ـ أنا متأكد أن هذا الرجل قُتل بيد النقيب لاوتون كمـا لو كنت قد وجهتُ الضربة بنفسي . مع أنني قد دَللته غير مرة على طُرق لإخراج أحد الأعداء من المعركة دون القضاء على حياته !هذا نوع من معاملة العلم كما الجنس البشري ، بقلة احترام فادحة .

ـ يا سيد ، قال هنري ، هل لديك الوقت لتضميد جرح طفيف ؟

ـ آه ! أجاب الطبيب وهو يفحص يده ، لقد مرتّ الرصاصة في العضلات دون

ان تمسّ العظم . انت سعيد الحظ لوقوعك بين يدّي جراح قديم و إلّا كنت فقدت ذراعك .

ـ حقاً ؟ لم اكن اعتقد ان الجرح خطير إلى هذا الحد .

ـ اوه ! الجرح لا يساوي شيئاً ، اجاب الجراح بهدوء عظيم ، لكن قطعُ يد كهذه يمكن ان يغري احد المتمرنين .

ـ يا للشيطان كيف ذلك ! صرخ النقيب وقد اصابه الهلع ، اي لذة يمكن ان نجدها في تشويه كهذا ؟

ـ ياسيد ، اجاب الطبيب بجدية ، القطع العلمي للأطراف عملية جميلة جداً وبسبب ضغط الوقت يمكن ان يخطر لأحد المتمرنين الّا ينظر إليها بدقة .

لم يكن الرائد يعتقد انه من الحكمة مهاجمة الإنكليز الذين تشتتوا في الغابة . ترك في الجوار مفرزة كبيرة للمراقبة واوكل امرها إلى النقيب لاوتون الذي كان جرحه عبارة عن خدش في راسه ، افقده وعيه فقط عند الضربة . علم دانوودي ان تشكيلاً إنكليزياً آخر سيصل من جهة « هودسون » ، وكان يريد البقاء قريباً لاحباط مخططاته .

تبع ضجة المعركة الصمت ، قبل ان يعرف سكان المنزل الغارقين في قلقهم ، مصير المعركة بوقت طويل . قرروا اخيراً إرسال سيزار لجمع الأخبـار ، وإذ بالباب يفتح فشاهدوا هنري بحراسة جنديين .

ـ هنري ! صرخ والده وقد تملكته المفاجأة ، هل هذا انت حقاً ؟ هل أُسرت مجدداً ؟

ـ كان الحظ ملائماً للثوار ، قال النقيب ، مجاهداً الإبتسـام لأختيه . روح التمرد تمددت حتى إلى الحيوانات ، والحصان الذي كنت امتطيه حملني ضد مشيئتي ووضعني تحت رحمة النقيب لاوتون .

ـ لماذا لم تقتله ؟ سأله سيزار وقد بدت عليه الشراسة .

ـ من السهل قول ذلك أكثر من القيام به ، يا معلم سيزار . خصوصاً انه راق لهؤلاء السادة تعطيلي عن استعمال يدي اليمنى .

ـ أنت مجروح ؟ صرخت الفتاتان ، وقد لاحظتا عندهـا المنديل الذي يضمد يده .

ـ أوه ! ليس هذا إلا خدشاً .

وحرّك هنري يده ليثبت انه لا يكذب .

ـ هل كان هناك ضابط مجروح من جهة الـ ... من جهتكم ؟ سألت فرانس الخيالين وهي ترتعد .

ـ من المؤكد أجاب أحد الجنـود . يبدو ان المـلازم سنكلتون قُتـل والرائد دانوودي .....

لم تسمع فرانس أكثر من ذلك وسقطت نصف غائبة عن الوعي عـلى أحد المقاعد .

ـ هل هو مجروح ؟ سأل هنري باهتمام .

ـ مجروح ؟ كلا . إذا كان هناك من رصاصة تستطيع قتله ، فهي لم تعـد موجودة منذ وقت طويل . أردت أن أقول فقط ان الرائد «دانوودي» محزون جداً لموت الملازم سنكلتون .

استعادت فرانس التي شحبت تماماً لونها الطبيعي ، وحينذاك دخل دانوودي شخصياً إلى الصالة ، على وجهه قلق وهموم . باختصار رجا مستر وارتون أن يمنحه الضيافة لأحد افضل ضباطه ، المجروح جرحاً عميقاً ، واشرف بنفسه على نقل الشاب سنكلتون الذي وصل الجراح إلى جانبه بعد لحظة .

في اثناء فحصه للجريح بانتباه كبير لم يستطع الطبيب «سيتيفرايف» منع نفسه من التمتمة بصوت منخفض :

ـ عندما يكون الأمر ناتجاً عن رصاصة يبقى لدي أملٌ ما . وهناك حظ أن لاتكـون قد مسّت الأجـزاء الحيويـة في الجسم . لكن جنود النقيـب لاوتون يضربون عشوائياً . والجروح التي يسببونها لا تشفى بسهولة ، لأن المريض يموت عادة قبل أن يصل الطبيب .

ـ هيا أيها الطبيب ، صرخ دانوودي وقد عيل صبره ، تكلم ! هل هناك من امل ؟ هل وجدت الرصاصة ؟

ـ ها هي في يدي . لقد اتخذت طريقاً لايمكن ان يأخذها سيف النقيب لاوتون ابداً على رغم كل العناء الذي تكبدته لاعلّمه طريقة استعماله استعمالاً علمياً . هل تصدق ، اضاف يقول وهو يبدأ التضميد ، انني رأيت اليوم في ساحة المعركة حصاناً قد فُصل راسه عن جسده تقريباً ؟

ـ تلك كانت ضربتي ، انا من قتل الحصان .

ـ أنت ! صرخ الطبيب وهو يترك الضمادة التي يمسكها . لكن على الأقل كنت تعرف انه حصان ؟

ـ اعترف انه كان لدي بعض الشك .

ـ في اللحظة المناسبة . لكن ضربات كهذه تقع على جسم إنساني هي دائماً مميتة وتهدر جهود العلم .

في تلك اللحظة وصل رسول ينبىء الرائد بأن حضوره ضروري في ساحة المعركة . قبل أن يترك سنكلتون سأل دانوودي الجراح إذا كان متأكـداً انه سيعيش ، وعندما جاءه الجواب إيجابياً نزل .

إنما قبل أن يترك المنزل دخل لحظة إلى الصـالة حيث كانت العـائلة كلها مجتمعة . استعلمت مس بايتون باهتمام عن حالة الجريح ، فشكـرها الرائـد بحرارة على طيبتها .

ـ إنه يحتاج إلى عناية زوجة او اخت ، أعطت فرانس ملاحظتها هذه بخجل .

ـ اخت ... له اخت ، اخت تستطيع ان تكون هنا صباح الغد ، اجاب دانوودي بتردد .

فكر لحظة ، القى نظرة قلقة على خطيبته وتمتم بصوت منخفض :

ـ حالة سنكلتون تستوجب ذلك لا نستطيع التخلي عن ذلك .

ـ سنكون مسرورات باستضافتها انا وابنتا اخي .

ـ هذا ضروري ، ياسيدتي . لا نستطيع ان نفعل غير ذلك ، أجاب الرائد بالتردد نفسه . هذا المساء سأرسل من يُحضرها . اما بالنسبة إليك ياهنري . شرفي اعزّ عليّ من حياتي ، لكنني استطيع دون خطرٍ ربطه بشرفك . لن اضع لك حارساً ابداً . وعدك يكفيني .

ـ انا مستجيب لثقتك ، يادانوودي ، أجاب هنري وهو يصافحه بصداقة .

استأذن الرائد من فرانس وهو يتبادل معها نظرة طويلة ، وخرج بسرعة من الشقة . وارسل رسولاً إلى الكولونيل سنكلتون الذي يسكن على مسيرة نصف نهار من المنزل ، ليُحضر ابنته إلى جانب الجريح .

خلال هذا الوقت ، كان النقيب لاوتون قد اتخذ الاجراءات العسكرية التي يستوجبها الوضع ، واصبح لديه الوقت للتفكير بالأسرى ، وبينهم الكولونيل « ويللمير » الذي كان يتمالك اعصابه عابساً .

بما انه اشتكى من الم الرضوض التي اصابته بسبب ما دعاه « سقوطه غير المتوقع عن الحصان » ، رافقه لاوتون إلى المنزل الكبير حيث فوجيء النقيب وارتون بوصوله واسرع يُقدم إليه الضيافة .

احسّت سارة بتأثر عظيم عندما رات مجدداً الكولونيل الذي تعرفت إليه في نيويورك . ويُعتقد انها تَكُن له حباً خفياً . بإشارة من عمتها ، ذهبت لاحضار

الطبيب الذي سألته مسز بايتون باهتمام عن اخبار الملازم الشاب .

ـ شفاؤه اكيد ياسيدتي ، أجاب الجراح وهو يحاول من باب الاحترام للسيدات ، وضع باروكته بشكل مناسب .

ـ الجميع هنا في خدمته والرائد دانوودي ارسل من يُحضر اخته .

ـ اخته ! كرر الطبيب بنبرة لها معنى . اوه ! إذا كان الرائد قد ارسل في طلبها ستأتي بالتأكيد .

لم تغب هذه الكلمات عن فرانس التي لايمكن ان يُلفظ اسم دانوودي في حضورها دون أن تنتبه ..

وُضع الكولونيل « ويللمير » نفسه بتصرف الجراح رغماً عنه ، فوضع هذا بسرعة الادوية اللازمة للرضوض التي يتألم منها .

في هذا الوقت كانت الخيالة قد اكملت طريقها لتأخذ مواقع جديدة ، واهتم دانوودي بالاسرى . أرسَلَ الجنود إلى داخل البلاد ورضي استجابة لتوسل هنري أن يترك الكولونيل « ويللمير » حراً بناءً على وعدٍ . ثم رجا الطبيب « سيتيفرايف » بأن يبقى في المنزل ليحيط الملازم سنكلتون بالعناية . ابتعد اخيراً مع رجاله وقلبه حزين لأنه مضطر للانفصال عن خطيبته الجميلة ، تاركاً بعض مراكز الحراسة في الخيالة على التلال التي تحيط بالوادي .

امّا فرانس ، فكانت حزينة اكثر وقلقة جداً . وقفت في الباحة تتابع بنظرها القامة المديدة للفارس الذي يبتعد على راس جيشه .

الفصل الرابع

شَكَّل الإنكليز مُربعاً كانت كل جهاته مزروعة بالبنادق ذات الحراب ، ونجحوا في الوصول الى الضفة والركوب مجدداً في النهر دون ان يتمكن خيالة النقيب لاوتون من إعاقة سيرهم . عادت إذاً الفصيلة الاميركية ببطء نحـو الوادي . عندما راى لاوتون على مسافة قريبة شكلاً غريباً يقطع المنخفض .

ـ ما نوع هذا الحيوان إذاً ؟ سأل النقيب حامل العلم « ماسون » الذي يركب قربه .

ـ يبدو لي انه إنسان .

ـ عندما تراه من الخلف ، تقول انه جملٌ .. يا إلهي ! إنه هـارفي بيرش اقبضوا عليه حياً او ميتاً !

اندفع حوالي دزينة من الخيالة على راسهم حامل العلم ، كالسهم وراء لاوتون .

كان البائع المتجول قد حافظ بحذر على مكانه في اعلى الصخرة، حيث رآه هنري ، حتى حلول الليل . واستطاع ان يتتبع احداث النهار خافق القلب . لكن عند المغيب ظنَّ أن لديه الوقت للوصول إلى منزله ، فقرر ان يسير في طريقه . لكن حظه السيء شاء ان يكتشفه النقيب لاوتون .

تجمد الدم في عروقه عندما راى الخطر الذي يتهدده . رمى رزمته على الأرض وشدّ حزامه الجلدّي وانطلق بأقصى سرعته نحو الغابة. لكن عدداً من الخيالة وقفوا بينه وبين الملجأ الذي يريده . ركض في الاتجاه المعاكس ، وهذه المرة صَفَرت قرب اذنه رصاصات عدة واستولى اليأس على قلبه . لحسن الحظ واجهه حائط صغير من الحجر : تسلقه بسرعة وعاد الأمل إليه ، لأن خيول مطارديه رفضت القفز فوق هذا الحاجز . لكن ليس كلها . غرز لاوتون مهمازه في بطن مطيتّه التي ارتفعت بثبات ونزلت بخفة من الجهة الاخرى للحائط .

اضطر « هارفي » المرهق من التعب ، إلى معاودة الهرب .

ـ توقف وإلاّ تموت ، صرخ النقيب وهو يتقدم رافعاً سيفه .

تعثر بيرش الخائف وتدحرج على الأرض دون حراك . اصطدم حصان لاوتون بجسده وسقط رامياً فارسه تحته .

نهض البائع المتجول سريعاً كالبرق . واستولى على سيف لاوتون الذي ظن ان ساعته قد حانت . لكن بعد لحظة تردد رمى هارفي بيرش السيف إلى جانبه وعاد يركض صوب الجبل .

ـ ساعدوا النقيب على النهوض ، صرخ ماسون الذي وصل مع رجاله واركضوا خلف هذا الشقي !

ـ توقفوا ! قال لاوتون بصوت كالرعد . إذا ركض أحدكم خلفه سيموت بيدي هذه .

بقي الرجال مدهوشين ، كأنهم مصعوقين على سروجهم أما حامل العلم الذي لم يكن اقل دهشة منهم ، فساعد نقيبه على ركوب الحصان .

ـ أخشى أن تكون مجروحاً ، قال ماسون بلهجة تعاطف .

ـ ممكن جداً ، أجاب لاوتون باقتضاب . ما ان نصل عند مستر وارتون ، حتى ارجو الطبيب فحص اضلاعي .

ـ ايها النقيب قال احد الخيالة عندما اقتربت الفرقة من المنزل ، ها هو منزل ذلك البائع المتجول ، هذا الجاسوس ، هل تريد ان نُشعل فيه النار ؟

ـ كلا ! صرخ النقيب بخشونة . هل انتم من مفتعلي الحرائق ؟

تريد أن تحرق منزلاً وضميرك مرتاح ؟ ليُقرِّب أحدكم شرارة نـار منه ولن يموت إلّا بيدي .

تراجع الخيالة بصمت ، مدهوشين اكثـر فأكثـر ، ولم تتأخـر الفرقـة عن الوصول إلى منزل مستر وارتون . وكانت طلقاتهم النارية قـد ألقـت الهلع في القلوب .

ـ ما هذا ؟ صرخت مس بايتون وهي ترتجف .

ـ هذا يشبه إلى حدّ بعيد دوّي سلاح ناري ، قال الطبيب بهدوء وهو يُنهي كوب الشاي . كنت اعتقدت أن رجال النقيب لاوتون عادوا ، لو لم أكن اعرف انه لا يستعمل المسدس ابداً إنما يعتمد على السيف .

ـ يا الهي ! هو لا يريد جرح احد بالطبع .

ـ جرح ؟ كرر « سيتيغرايف » . ضربات النقيب لاوتون لاتجرح ياسيدتي ، إنها تقتل . وماذا سيفعل الجراح إذا وجد المـرضى قدمـاتوا ، عنـدما يصـل لمعالجتهم ؟

كان مايزال يتكلم عن هذا الاحتمال ، عندما طرقت ضربات قويـة الباب ، ودخل النقيب لاوتون بنفسه يرافقه حامل العلم ماسون .

بينما كان الطبيب « ستيغرايف » يحضر نفسه مبتسماً بمكر للعناية به ، دعت مس بايتون الضابطين للجلوس امام المائـدة وتناول الطعـام ، فقبلا الدعـوة بحماسة . اخيراً قَبِلَ النقيب الانسحاب إلى الغرفـة التي وضعت في تصرفـه والخضوع لفحص الطبيب ، لكن معترضاً على استعمـال كل ادوات الحقيبـة الطبية .

ـ حباً بالسماء ، ياسيتيغرايف ، دع جانباً ذلك المنشار اللعين . إنه يجمد الدم في عروقي .

ـ من غير المناسب أن يخاف رجل عرّض حياته في كثير من المعارك للخطر عند رؤية اداة ضرورية كهذه .

ـ ضرورية ! هيا ، هل أحد اضلاعي مكسور ؟

ـ كلا

ـ كل عظامي في حالة جيدة ؟

ـ نعم

ـ دعني ارتاح إذاً ، ياعزيزي لست احتاج إلّا إلى النوم . وادار ظهره للطبيب الذي اظهر عدم الرضى ، منزلقاً داخل السرير .

في هذا الوقت ، كانت ضجة مطاردة هارفي بيرش قد وصلت إلى كوخه ، دون أن تستطيع كاتي ووالده معرفة الأمر بوضوح . كان العجوز سيزار عندها في الكوخ ، إذ ارسلته مس بايتون ليحمل الأدوية وبعض المؤن للعجوز المريض . لكن المحتضر لم يعد في حالة يُفيده فيها هذا . رغبته في رؤية ولده ، كانت الرابط الوحيد الذي مازال يشده إلى الحياة .

ـ انا اتمنى جداً ان يأتي هارفي بيرش ، قال العجوز الزنجي وهو يدير عينيه القلقتين .

ـ من العار عليه ان يكون غائباً في لحظة كهذه ، اجابت كاتي بحدّة . لنفترض ان اباه يريد وضع وصيته ، من يستطيع كتابتها غيره ؟

ـ ربما قام بذلك سابقاً ؟

ـ ليس في هذا ما يُدهش . اعطي كل مافي العالم ، من اجل معرفة لمن يمكن ان يترك هذه الحلقات التي بشكل حذاء من فضة ، وطاولة خشب الجوز وملاعق الفضة الستة ، الخ ....

حينئذ ، ظَهَرَ هارفي بنفسه على العتبة ، ونهضت كاتي بسرعة ، مرتبكة .

ـ هل مازال حياً ؟ سأل البائع المتجول بصوت مرتجف .

ـ دون شك ، اجابت المراة . لن يرحل إلاّ مع ارتفاع المدّ أو عند صياح الديك .

دخل بيرش إلى غرفة والده وانحنى فوق سريره لحظة ، منادياً إياه بصوت متقطع . فتح العجوز عينيه ، عرف هارفي واستطاع بعد جهد ان يبتسم له . جمع كل قواه ليوجّه بضع كلمات لابنه ، عندما قاطعته فجأة ضجة ما ، استدعت عودة هارفي إلى الغرفة المجاورة . كان يقف على العتبة احد الأشخاص مرتدياً ثيابا قديمة وممزقة ، ملامحه توحي بأن رغبات دنيئة تحركه. كان هذا احد زعماء عصابات « الجزارين » المعروفين الذين يغزون البلاد بحجة الحرب . خلفه يقف بعض الرجال المدججين بالسلاح. فهم هارفي ان كل مقاومة لا تُجدي. ترك نفسه بهدوء في تصرفهم . في لمح البصر جُرِّد هو وسيزار من ثيابهما ، ورُميت لهما مقابلها بعض الأسمال . ثم وُجّهت إلى صدرهما بندقية وسأل زعيم العصابة :

ـ اين هي رزمتك ؟

ـ إسمع ، قال بيرش وهو يـرتجف من التأثـر . والدي يحتضر في الغرفـة المجاورة . اتركوني حتى اتلقى بركته ، وستحصلون على كل شيء .

ـ أجب على سؤالي ، أو سترسلك تلك البندقية لمرافقة والدك .

أين هي رزمتك ؟

ـ لن اقول شيئاً قبل أن ارى والدي .

ـ قل لنا أين هي بضائعك وسنتركك لترى والدك .

دَلَّهم هارفي على المكان الذي ترك فيه رزمته وهو يهرب ،لكن أحد الأشقياء ركض ليعيده ، بينما كان الزعيم ينتقل إلى موضوع آخر :

ـ أين هي دراهمك ؟ نعرف انك تملك مالاً .

ـ اتركوني اذهب لرؤية والدي ، وستحصلون على كل شيء .

ـ ستذهب لرؤيته بعد ذلك ، اقسم لك .

ـ حسناً ! خذوا تلك القطع المعدنية اللعينة ، اجاب هنري بيرش وهو يرمي إليه بصرّة دراهمه ، التي نجح في اخفائها عنهم بينما كان يُبدل ثيابه .

تصاعد أنين من الحجرة المجاورة وقام البائع المتجول بحركة للتوجـه نحو والده ، لكن ضربة من حربة البندقية سمرته إلى الحائط .

ـ سألتك عن دراهمك !

ـ لقد اخذتها ، صرخ هارفي بيأس .

ـ نعم ، معنا الصرّة ، لكننا نعرف انك تملك غيرها . أين وعاء الدراهم ؟ أسرع ، إذا كنت تريد رؤية والدك .

ـ ارفع الحجر الذي تجلس عليه تلك المرأة .

ـ إنه يهذي ! صرخت كاتي بحالة مزرية .

لكن قبضة عنيفة القت بها جانباً. رُفع الحجر بسرعة واستولى رجال العصابة

على وعاء الحديد الشهير الذي كان محط آمال المرأة .

فرح الجزارون بغنيمتهم ، وتحضّروا للانطلاق مصطحبين معهم البائع المتجول ، بيعه إلى اول فرقة اميركية يصادفونها . رفض هارفي بعناد السير معهم ، وكادوا يحملونه بالقوة ، عندما شُوهد مايُشبه الشبح يدخل إلى الغرفة ويُسَمّرَ المشاهدين من الرعب . كان جسده ملتفاً بغطاء السرير الذي نهض عنه . عينه جامدة ووجهه المكفهر كالأموات يعطي انطباعاً انه ينتمي إلى عالم آخر اعتقدت كاتي وسيزار شخصياً انها روح العجوز بيرش وهربا بسرعة إلى خارج البيت ، تتبعهما كل عصابة الجزارين خائفين . تفرقوا كلهم في الجبل .

حمل هارفي والده بين ذراعيه واعاده إلى السرير . لكن هذا الجهد الرهيب ، ارهق القوة الباقية عند العجوز الذي لم يتأخر عن لفظ انفاسه بين ذراعي ابنه

عندما راى سيزار وكاتي أن كل ما في الكوخ ساكناً ، لم يتأخرا عن العودة إليه . ساعدا البائع المتجول على تكفين العجوز . تولّى بعدها سيزار التوصية على تابوت في القرية المجاورة . امّا الجزارون ، فقد انسحبوا إلى الغابات مع غنيمتهم ، واقاموا ما يشبه المجلس الحربي قرروا خلاله ترك يوم الدفن يمر . والعودة بعدها للقبض على هارفي وتسليمه للأميركيين ، وحسبوا الثمن الموعود لمن يمسكه .

في اليوم التالي باكراً ، سارت كاتي هاينز في طريق منزل مستر وارتون ، كي تضع مس بايتون على علم بحوادث الليل . واضافت بحزن :

ـ كنت أعتقد أن هارفي ينتظر موت والده ليتزوج . لكن في الوقت الحاضر من ترغب في رجل دون رزمة ، دون منزل ، دون نقود ؟

اخيراً اعتقدت أن ساعة الرجل العجوز قد حانت وعندما اتت ، لم يعد اي دواء يستطيع انقاذه .

ـ مهلا ، مهلا ، ايتها المراة ، قاطعها الطبيب سيتيغرايف . انت على خطأ في هذا الأمر . من الممكن ان المعالجة الجدّية كانت أطالت حياة المريض . كيف عالجتيه ؟ اخبريني من فضلك .

ـ كيف عالجته ؟ صرخت كاتي مستاءة . لقد عاملته دائماً بلطافة تستطيع ان تكون متأكداً من ذلك .

ـ يسألك الطبيب فقط ، اية ادوية انطيتيه .

ـ اوه ! ليس إلاهذا ؟ لقد كنت اعطيه ماء الاعشاب المغلية . لكن لو كان هناك طبيب قربي لكنت استدعيته بكل طيبة خاطر لأنني من انصار الطب ، وهارفي يدّعي حتى انني اقتل نفسي بالادوية . إنه بالنسبة إلى هذه النقطة عنيد مثل البغل .

تركت مس بايتون الطيبة كاتي حتى تعبت من الدفاع ، ثم تأكدت عبر اسئلة خفية أن هارفي بيرش يبدو غير مستعدٍ للزواج من خادمته فاقترحت عليها الانضمام إلى خدمتهم ، إذا لم يحتفظ بها البائع المتجول في بيته . عادت كاتي إلى الكوخ مرتاحة لتحرص على تحضير الجنازة التي يجب ان تتم في اليوم نفسه .

خلال هذا الوقت ، كان النقيب لاوتون يزور الملازم سنكلتون ، حيث وجده الطبيب عندما أتى لتغيير ضمادات الجريح . خضع لاوتون بدوره لتضميد خفيف .

ـ من المؤسف ، اعطى الطبيب ملاحظة ، انك بعدما عانيت الكثير ومررت بخطر كهذا ، لم تستطع القبض على هذا الشقي البائع المتجول . احب ان ارى ذلك الجاسوس مشنوقاً .

ـ كنت اعتقد ان مهنتك هي شفاء المرضى لا القتل ، اجاب النقيب بصوت فيه جفاء إلى درجة ان الطبيب افلت الدبوس الذي كان في يده .

ـ مبدئياً انا موافق معك، لكن لا يوجد قاعدة دون شواذ، فقط لو كنت تقبل،

أيها الصديق العزيز ، تعليم جنودك كيفية استعمال السيف بتحفظٍ اكثر ....

ـ لا اعرف جنوداً يحاربون بالسيف اكثر مهارة من رجالي ، اجاب لاوتون وهو يرتدي ثيابه بكثير من هدوء الأعصاب . بضربة واحدة ، يَشقّون عادة الراس من الجمجمة حتى الفك . تنهد الطبيب واخذ يُرتب ادواته .

الفصل الخامس

توجّه سيتيفرايف بعدها إلى الملازم سنكلتون ، وفرح إذ رآه يتماثل للشفاء . بينما كان الطبيب يُبدل الضمادات ، سأله الشاب وهو يتورد قليلاً .

ـ قل لي يادكتور ، من هو ذلك الملاك الذي نزل من السماء ، ودخل عليّ البارحة مساء ؟

ـ إلى غرفتك ؟ من سمح لنفسه إذاً باللحاق بي ؟ ملاك أو غير ذلك ، سأعلّمه كيف يحشر نفسه في أعمال الآخرين !

ـ أنت تغالط نفسك ، أيها الطبيب . لايوجد في الأمر اية منافسة ، إن أحداً لم يمسّ الآلة التي وضعتها . لكن من هو ذلك الانسان الرائع الذي يجمع خفة الجنية إلى وداعة الملاك ؟

رتّب الطبيب باروكته وسأل :

ـ هل يرتدي ذلك الانسان فستاناً ، ياجورج ؟

ـ لم الا حظ إلّا عينين صافيتين ، خدين موردّين ، مشية كلها عذوبة ...

ـ اسكت ! اسكت ! انت تتكلم كثيراً بالنسبة إلى حالتك الحاضرة. يجب ان تكون تلك مس بايتون . مشيتها وخداها يمكن أن يجعلاها تبدو بكل سهولة كانها إحدى الفتاتين

ـ لها ابنتا اخ إذاً ؟ الملاك الذي رايته يمكن ان يكون احداهما لكن من المستحيل ان تكون العمة .

ـ اسكت ياجورج ! يجب ان تبقى مستريحاً وتنتظر اختك التي ستكون هنا بعد ساعة .

ـ ماذا ! ايزابيل ؟ من ارسل في طلبها ؟

ـ الرائد ، أجاب سيتيغرايف بجفاء .

ـ يا لهذا الصديق الرائع ! تمتم الشاب وقد فقد قوته وهو يسقط على المخدة .

وقتذاك كانت فرانس وسارة في الباحة ، تنتظران وصول مس سنكلتون . شحبت فرانس دفعة واحدة عندما رات العربة التي تجلس فيها فتاة نحيفة شعرها اسود ، تحيط خصلاته الطويلة بوجه ابيض مثل الرخام تضيئه عينان كبيرتان سوداوان .

تقدم الطبيب لمساعدتها على النزول من العربة وفهم النظرة المتوسلة التي رفعتها نحوه الفتاة فأسرع يُطمئنها عن حالة اخيها . تورّد وجه إيزابيل وانهمرت دموع التأثر على خدّيها . ركضت فرانس إليها وقبلتها بحرارة وبنوع من الاعجاب الممزوج بالقلق . مررت يدها تحت ذراعها وقادتها إلى غرفة الملازم . بعدما تبادلا بضع كلمات ، سأل سنكلتون اخته :

ـ اين هو دانوودي إذا ، يا ايزابيل ؟

ـ دانوودي ؟ اجابت بصوت مرتجف . لم ارَه . كنت اظن انني سأجده هنا .

ـ لديه دون شك واجبات تؤخره بعيداً . اجاب الجريح مفكراً . الا استطيع والحال هذه رؤية النقيب لاوتون ؟

اسرعت فرانس بالذهاب لإصطحابه وعادت تجلس بجانب إيزابيل .

ـ لاوتون ، صرخ الملازم ، هل لديك اخبار عن الرائد ؟

ـ لقد أرسل حتى الآن رسالتين ليسأل كيف تسير احوالنا في إصاباتنا .

ـ لكن لماذا لم يأتِ بنفسه ؟

ـ هذا سؤال يستطيع هو وحده الإجابة عليه . ردَّ النقيب بشيء من الحزم . انت تعرف أن عليه مراقبة الإنكليز .

ـ كيف حدث ياصديقي انك هنا بينما يوجد الكثير من العمل ؟

ـ ذراعي اليمنى لاتزال في حال سيئة . ومس بايتون منعتني من الذهاب قبل أن تستضيفني مرة اخرى .

ـ عليّ الذهاب لمشاركة عمتي في اعمالها ، قالت فرانس وهي تبتسم .

طلبت من إيزابيل أن تعذرها وخرجت مسرعة من الغرفة . تبعها سنكلتون بعينيه بصمت .

ـ لانجد غالباً عمة وابنة اخ متشابهتين الى هذا الحد ، قال اخيراً . هذه تبدو كأنها حورية ، لكن العمة كالملاك .

ـ العمة ؟ اعترف أن عدداً اقل من السنوات يناسبني افضل . اجاب لاوتون مبتسماً .

ـ تكاد لا تبلغ العشرين من عمرها ! صرخ الجريح .

ـ اسكت ! لقد ظننت أن الأخت الكبرى هي العمة ، قالت ايزابيل وهي تضع

يدها على شفتي اخيها . في الوقت الحاضر عليك الحفاظ على الصمت والارتياح .

لكن اسياد المنزل كانوا يحضرون ازياءهم للمأدبة التي يجب ان تجمع عدداً كبيراً من المدعوين . فرك لاوتون ونظف جيداً كل قطع ثوبه . كان شعره الأسود قد اصبح ابيض كجناح اليمامة، بسبب البودرة التي لم يُزلها عنه . كانت مس بايتون نفسها ترتدي ثوباً للحفلات من الحرير الليلكي تـزينه الشـرائط وقـد وضعت كل مجوهراتها .

ارتدت سارة ـ التفتا ـ الزهري الفاتح وزينت شعرها بزهرة . وفرانس كانت تلبس حريراً ازرق وترفع خصلات شعرها بمشط مزخرف ، والاثنتان تحيطان بايزابيل ذات الجمال الصارم . انضم الكولونيل ـ ويللمير ـ والطبيب ومستـر وارتون وهنري إلى لاوتون ليقودوا السيدات الى صالة الطعام ، وبدات الوجبة

لقد حرصت مس بايتون على تحضير مائدة إحتفالية حقيقية لضيوفها . انطلق من المطبخ موكب محترم . يقوده سيزار الذي كان في الطليعة ينوء تحت وزن ديك حبش ضخم . بعده ، يمشي مرافق النقيب لاوتون حاملاً بيديه الاثنتين قطعة فخذ كبيرة من فرجينيا . ثم اتى خادم غرفة الكولونيل ممسكاً بإحدى يديه حساء من الدجـاج وبالأخـرى عجينة حـارة بالمحـارات . يتبعـه مسـاعـد الطبيب سيتيفرايف مع حساء حار . وراءه خيال آخر في خدمة الملازم سنكلتون ، كان يحمل طبقاً ضخماً من البطّ المشوي واقفل خادم مس بايتون الأبيض القصير الموكب ، وهو ينوء تحت ثِقْلِ اطباق الخضروات التي كدّستها الطباخة فـوق بعضها .

لكن ليس من المبالغ فيه ان كل تلك الأطباق تؤلف العشاء . فالحمام وانواع الطيور المختلفة واصناف من الوجبات النباتية وكمية كبيرة من الفاكهة المجففة والكعك ، تُكمل اخيراً تلك المائدة الشهيّة .

قدم مستر وارتون النبيذ لأصحابه وقال محيياً إيزابيل باحترام فائق :

ـ ستتشرفنا مس سنكلتون باقتراح النخب الأول .

مع ان هذا الاقتراح كان طبيعياً جداً، فقد توردت الفتاة ثم شحبت، اضطربت وتمتمت اخيراً كأن اي إسم آخر لم يخطر في بالها :

ـ نخب الرائد دانوودي .

صُدمت فرانس عميقاً بالطريقة التي قالت فيها ايزابيل ذلك وبالنبـرة التي لفظت بها الإسم . أخيراً اخرجها من افكارها نخب آخر ، اقترحه النقيب لاوتون بصوته المترجرج :

ـ نخب ميدان المعركة والتساوي وانتصار الشجاعة !

ـ من كل قلبي أوافق عليه يانقيب ، قال سيتيغرايف ، شرط أن تترك لي ما افعله وان لاتقترب فرقتك ابداً من العدو اكثر من مسافة طلقة المسدس .

ـ تعرف جيداً ، ايها الطبيب ، صرخ لاوتون بحدة ان هذا هو التمني الأكثر شيطانية الذي تستطيع ان تقوم به .

ـ سأحمل هذه المسألة الى الكولونيل ويللمير ، أجاب الجّراح . من المفترض انك لاحظت ايها السيد الخسائر التي احدثها بين صفوفك جنود النقيب لاوتون . لابُدَّ انك لاحظت انه عند كل ضربة من خصومهم تجعلهم بلا حراك ، وان كل كفاءة الجراح تصبح غير مجدية . والآن ، انتقل إليك الم تكن فرقتك قد خسرت بقدرٍ متساوٍ لو مثلاً بدلاً من اصابة اليد اليمنى لجنودك ، شقوا لهم الراس ؟

هذه المسألة غير المناسبة ادّت إلى جدال حاد أجبر مس بايتون على وضع حدٍ له ، إذ أعطت الاشارة بانتهاء الوجبة . رافق الكولونيل ، ويللمير ، السيدات إلى الصالة حيث انشغل كلياً في إغراق سارة بمجاملاته وعنايته . ذهب سيتيغرايف ولاوتون لزيارة الملازم الذي كانت ايزابيل قد جلست قربـه مجدداً ، ثم ركبـا

حصانيهما للتوجه إلى قرية « الجهات الاربعة » حيث على النقيب الانضمام إلى فرقته والطبيب زيارة مرضاه . بما انهما مرّا امام كوخ البائع المتجول . استوقفهما الموكب الجنائزي الخارج منه . رفع هارفي بيرش عينيه وهو يمر امام الخيالين وخفق قلبه بسرعة اكثر عندما تعرف إلى الرجل الذي كان يخشاه كثيراً . لكنه اخفى قلقه ومرّ امامه بخطى ثابتة . اظهر النقيب لاوتون نفسه امام الجنازة . عندما مرّ آخر إنسان في الموكب ، لكز حصانه وانضم إلى مستر وارتون وهنري اللذين كانا في آخر القافلة . اسرع الطبيب سيتيغرايف الخطى وسأل بصوت منخفض :

ـ لاشك في ان المرحوم كان والد هذه المرأة التي حضرت صباحاً إلى المنزل ؟

ـ كلا طبعاً ، لم تكن هذه سوى طبيب له يلبس فستاناً . كان والد البائع المتجول الشهير ، ذاك الجاسوس .

ـ ماذا ! صرخ الجرّاح مصعوقاً ، هذا الذي اوقعك عن الحصان ؟

ـ لم يوقعني احد ابداً . ايها الطبيب ، اجاب النقيب بجدية. لقد سقطت لأن حصاني تعثّر ، هذا كل ما في الأمر .

ـ إنما اين يمكن ان يكون ذلك الجاسوس مختبئاً ؟

ـ إنه هنا ، يتبع جسد والده .

ـ ماذا ؟ وتركته يمر ؟ ماذا تنتظر للقبض عليه وشنقه ؟

ـ مهلاً إذاً ياسيتيغرايف العزيز ! هل تريد توقيف إنسان في الوقت الذي يؤدي فيه آخر واجباته نحو والده ؟ ثِقْ بي . سأجعله يدفع لي جزاء ذلك يوماً ما .

مرّت الجنازة إذاً دون ان يَقْلق هارفي . عندما انتهى كل شيء عاد ببطء وبحزن إلى كوخه ترافقه كاتي. لم تندهش هذه الاخيرة وهي ترى رجلاً معروفاً في كل

الجوار باسم « المضارب »(*) يدخل على إثرهم . وكان هارفي ينتظره دون شك ، لأن هذا الأخير سحب ورقة من جيبه ومدّها إليه وهو يقول بسرعة :

ـ هاهو عَقْد بيع المنزل والحديقة . إنه مكتوب حسب القوانين .

بينما كان الغريب يفحص الورقة بانتباه كبير ، جمع هارفي بسرعة بعض الأغراض التي ينوي حملها معه ليترك البيت إلى الأبد حسب رغبته . فهمت كاتي المسكينة بوضوح ، وتنهدت عندما رأت حلمها القديم بأن تصبح زوجة البائع يتبخر .

ـ أخاف أن تكون هذه الصفقة غير صالحة قانونياً ، قال المضارب أخيراً بمكر . أعرف أن اثنين من جيرانك اقترحا على بعضهما الذهاب غداً للتقدم بطلب سرقة بيتك و ...

ـ لا يستطيعون سرقة ماهو ملكي ، أجاب هارفي . أعطني المئتي دولار التي وعدتني بها ، ويُصبح البيت لك . انت مواطن معروف جداً وليس عليك أن تخشى إقلاق راحتك .

ـ قل مئة دولار وتتم المسألة .

ـ تتم ؟ لكن اتفقنا على كل شيء هذا الصباح .

ـ لا شيء متفق عليه حتى تُعطى الورقة وعند دفع المبلغ ، أجاب المضارب بتهكم .

ـ لقد أعطيتك الورقة ، صرخ هارفي .

ـ نعم وسأحتفظ بها ، إذا أردت أن توافقني على الثمن . لكن هيا ، لا أريد أن أكون قاسياً جداً معك ، هاك مئة وخمسين دولاراً وتتم الصفقة .

(*) « المُضارب » : هو الذي يعمل في مجال البنوك أو التجارة ، وذلك عن طريق المضاربات بأسعار العملات من أجل الربح . وهنا تدل الكلمة على أن هذا الانسان يبيع ويشتري اي شيء من أجل المال .

تردد هارفي لحظة ، لكن عندما فهم بأنه لم يعد لديه الوقت لايجاد مشترٍ آخـر وافق وهو يقول لكاتي :

ـ لو كنت أملك طريقة أخرى لأدفع لك ، لكنت فضلت خسارة كل شيء على أن اترك أحداً يسرقني على هذا النحو .

ـ ما زال بـإمكانك خسارة كل شيء ، قال المضارب وهو يخرج من الكوخ بابتسامة شيطانية .

عاد البائع المتجول بحزن إلى رزمته ، بينما دارت كاتي حوله محاولة بمودة تهدئة الغضب الذي استولى عليه .

ـ طالما كان والدي حياً، صرخ هذا، كان هناك أحد ما يقرأ ما في قلبي. بعد كل تجوالي السّري والخطير ، بعد معاناتي من الشتائم وعدم العدالة ، كان عزائي الوحيد أن أتلقى بركته عند العودة ! من سينصفني اذاً في الوقت الحاضر ؟

ـ هارفي ! هارفي ! قالت كاتي بنبرة متوسلة . لكنـه عاود دون أن يستمـع اليها :

ـ نعم ! أيوجد من سيقوم بانصافي . يجب ان يعرفني قبل أن أموت . أوه ! سيكون من الظلم الشديد أن أموت تاركاً خلفي سمعة كهذه !

وضع عندها رزمة على كتفيه ، صافح يد كاتي بحرارة مودعاً :

ـ من الصعب عليّ الانفصال عنك أيتها المرأة النبيلة . سأعطيك كل الأثاث الذي بقي في هذا المنزل . وداعاً . سنلتقي يوماً ما مجدداً .

ـ نعم في مملكة الأشباح ، قال صوت رمى الرعب في قلب البائع المتجول .

ودخل زعيم « الجزارين » إلى المنزل يتبعه المضارب نفسه .

ـ ماذا ! رزمة جديدة ، يا هارفي ؟ وممتلئة جيداً ايضاً ؟

ـ الم تتسبب لي حتى الآن بما يكفي من الأذى ؟ صرخ البائع المتجول . ماذا تريد مني ايضاً ؟

ـ دمك ، أجاب الجزّار بقسوة .

ـ كما فعل يهوذا قديماً تريد أن تصبح غنياً بثمن الدم ؟

ـ وثمن كبير ، يا رَجُلي الشجاع : خمسون جنيهاً ، ما يساوي تقريباً وزن هيكلك العظمي !

ـ خذ ، صرخت كاتي بحدة ، ها هي نقودي . كل هذه المِتاع لي ايضاً وسأعطيك كل شيء إذا منحت هارفي فقط ساعة للهرب .

وضع الجزّار النقود في جيبه ببرودة . لكن رغم توسلات كاتي المستاءة وطلباتها اشار إلى اثنين من رجاله بالقبض على البائع المتجول .

ـ قودوني إلى الرائد دانوودي ، قال هارفي بكبرياء . إنه صارم ، لكنه على الأقل لا يهين الناس في المصيبة .

ـ سأفعل ماهو أفضل من ذلك ، أجاب رجل العصابة ، لأن ليست لي رغبة في القيام برحلة طويلة برفقتك . إن فرقة النقيب لاوتون على نصف ميل في الجوار ، وسيدفع لي ثمن القبض عليك مثل الآخر . هيا انتما الاثنان ، سيرا !

بما أنهم ساروا ، قاطعين الباحة اصطدمت قدم الزعيم بقسوة بحطبة وصرخ غاضباً :

ـ اللعنة على تلك الحطبة الشيطانية ! الليل شديد الظلمة كي نتمكن من إيجاد طريقنا . ها ! انتما الاثنان ! ارميا شعلة وسط ذلك الكوخ القديم ، كي يضيء لنا الطريق .

ـ توقفا ! صرخ المُضارب مستاء ، انتما تشعلان البيت !

ـ هكذا نرى أفضل ، أجاب الجزار وهو يوزع على الأرض الجمرات التي تشتعل في الموقدة .

في لحظة واحدة اشتعل البيت ناراً .

ـ أيها الأشقياء ! صرخ المُضارب مغتاظاً ، أهكذا تكافئونني على تقديم هذا الجاسوس إليكم ؟

ـ أنصحك أن لاتُخاطر بالتكلم معي بهذه النبرة ، أجاب الجزار وهو يضع بندقيته على كتفه بحركة ذات مغزى . اضطر المضُارب غاضباً ، وكاتي هاينز الحزينة بأسف إلى إخلاء المكان تاركين البيت يحترق كأنه مشعل . وسار الجزارون في طريقهم وهم يقودون معهم البائع المتجول موثقاً .

كل هذه الأحداث جرت على مسافة قصيرة جداً من منزل مستر وارتون . ولكن سكان المنزل الكبير لم يكونوا قد عرفوا بشيء بعد . بعدما تركت إيزابيل أخاها نائماً بارتياح ، دخلت إلى الغرفة التي وضعت تحت تصرفها لترتاح قليلاً . تركت الباب غير مُغلق . فاقتربت فرانس منه وفي نيتها أن تطمئن إلى الزائرة الجديدة . رأتها وقد انسابت جدائلها السوداء المحلولة على كتفيها منشغلة بتأمل صورة في يدها . خُيّل لفرانس أنها لجندي في زيّه العسكري ، وبدا لها أنها تعرفت إلى ملامحه . خفق قلبها بعنف . تراجعت خطوة ، لكن لم تستطع أن تزيح عينيها عن وجه إيزابيل .

فجأة ، قرّبت هذه الأخيرة الصورة التي تمسكها إلى شفتيها . وأطلقت فرانس مايُشبه الأنين . ادارت مس سنكلتون رأسها فشاهدت الفتاة الشابة وبقيت لحظة كالخرساء وكأنها مصعوقة . أخيراً تقدمت نحوها ، مدّت لها يدها وادخلتها إلى غرفتها . سألتها فرانس وهي ترتعش عن أخبار أخيها .

ـ إنه افضل بكثير . أليس هذا صحيحاً ؟ لو رأيته عندما أحضره الرائد دانوودي إلى هنا ...

ـ أنت تعرفين الرائد ! تكلمي يا مس وارتون ، هل كنت ترينه غالباً ؟

ـ إنه ابن عمي ، أجابت فرانس بصوت مرتجف .

ـ وسيتزوجك ؟ صرخت مس سنكلتون وقد حدست ما في الأمر .

هذا السؤال أصاب كبرياء فرانس مباشرة . لكنها اشفقت على الوجه الشاحب والمكفهر الذي بدا على إيزابيل . عادت هذه تقول متأثرة جداً :

ـ سامحيني ، يا مس وارتون ، إذا ما كنت أتدخل في ما لا يعنيني ...

ترددت لحظة . نظرت الفتاتان إلى بعضهما بخجل ثم ارتمتا الواحدة بين ذراعي الأخرى معاً ، تبادلتا القبلات وانفصلتا . عادت ايزابيل إلى جانب اخيها ، وفرانس إلى غرفتها حيث وجدت سارة شاردة مع افكارها التي لابد انها كانت سعيدة ، لأن ابتسامة وادعة تلاعبت على شفتيها . بل انها لفظت إسم الكولونيل « ويللمير » بصوت منخفض .

الفصل السادس

كانت قرية « الجهات الأربعة » تتألف من مجموعة اكـواخ فقيرة ، سميت كذلك بسبب طريقين يتقاطعان فيها بزاوية مستقيمة . فوق الكوخ الأقل سوءا ترتفع إشارة قديمة عليها هذه الكلمات : « مسكن جيد للمشاة والراكبـين » . تحت هذه الكتابة ، كتب بعض خيالة النقيب لاوتون بخط سيء وبالطبشور : فندق بيتي فلاناغون .

كانت ربة البيت التي تُكَرَّم بهذه الطريقة ، الممول الغذائي لجيش دانوودي . وهي أرملة جندي وتعتبر ضباط الفرقة ورجالها كأولادها تماماً . تتبع الجنود في عربة صغيرة محملة بكل انواع الأشياء الكفيلة بجعل حضورها محبباً . بما انها وصلت أولاً إلى المكان الذي يجب ان يتمركزوا فيه ، سكنت الكوخ المتروك فـي

« الجهات الأربعة » وقامت بما في وسعها لتحويله إلى ما سمتّه « مسكناً انيقاً » واطلق عليه الضباط مازحين إسم « فندق فلاناغون » .

لا يوجد في الفرقة كلها فارساً واحداً لا تعرف بيتي اسمه واسم عائلته ولقبه او لم تنجح في أن تكون محبوبة منه . على رغم ميلها إلى المشروبات القوية وعدم نظافتها وثرثرتها غير المحدودة . لكن طيبتها الشديدة وحبها القوي لبلادها جعل الجنود جميعهم يفضلونها .

تلك كانت بيتي فلاناغون . التي على رغم الهواء المثلج تظهر بوجه مورد عند باب الفندق لتستقبل المفضل لديها ، النقيب لاوتون الذي وصل برفقة الجراح .

ـ بيتي ، صرخ قائلاً لها ، انا سعيد برؤيتك ! هذا الهواء اللعين اثلجني حتى العظم . لكن رؤية وجهك الأحمر تدفئني بقدر ما تدفئني حطبة في الموقد .

ـ اعرف ايها النقيب أن فمك مملوء دائماً بالمجاملات . لكن اسرع في الدخول . وأنت ايضاً ايها الطبيب . لقد اعتنيت جيداً بالجرحى خلال غيابك وقد غذّيتهم كأنهم ملوك .

ـ غباء بربري أن تُعطي طعاماً لأناس تجتاحهم الحمى ! صرخ الجراح .

ـ أنت تُصدر زعيقاً من اجل بضع قطرات من المشروب ، اجابت بيتي دون ان تعبس .

ادخلتهما إلى الصالة حيث كانت تتأجج نار قوية تنفي الحاجة إلى اشعال الشمعدانات(*) . وحيث توجد طاولة طويلة مصنوعة من الواح انتُزعت من سياج خشبي ، تحمل خابيتين(*)(*) كبيرتين فيهما نبيذ . كانت

(*) الشمعدانات : جمع شمعدان وهو يستعمل لوضع الشموع فيه .

(**) خابيتين : مثنى خابية وهي وعاء كبير مغلف بالقش لوضع الخلّ او الخمر او الزيت ...

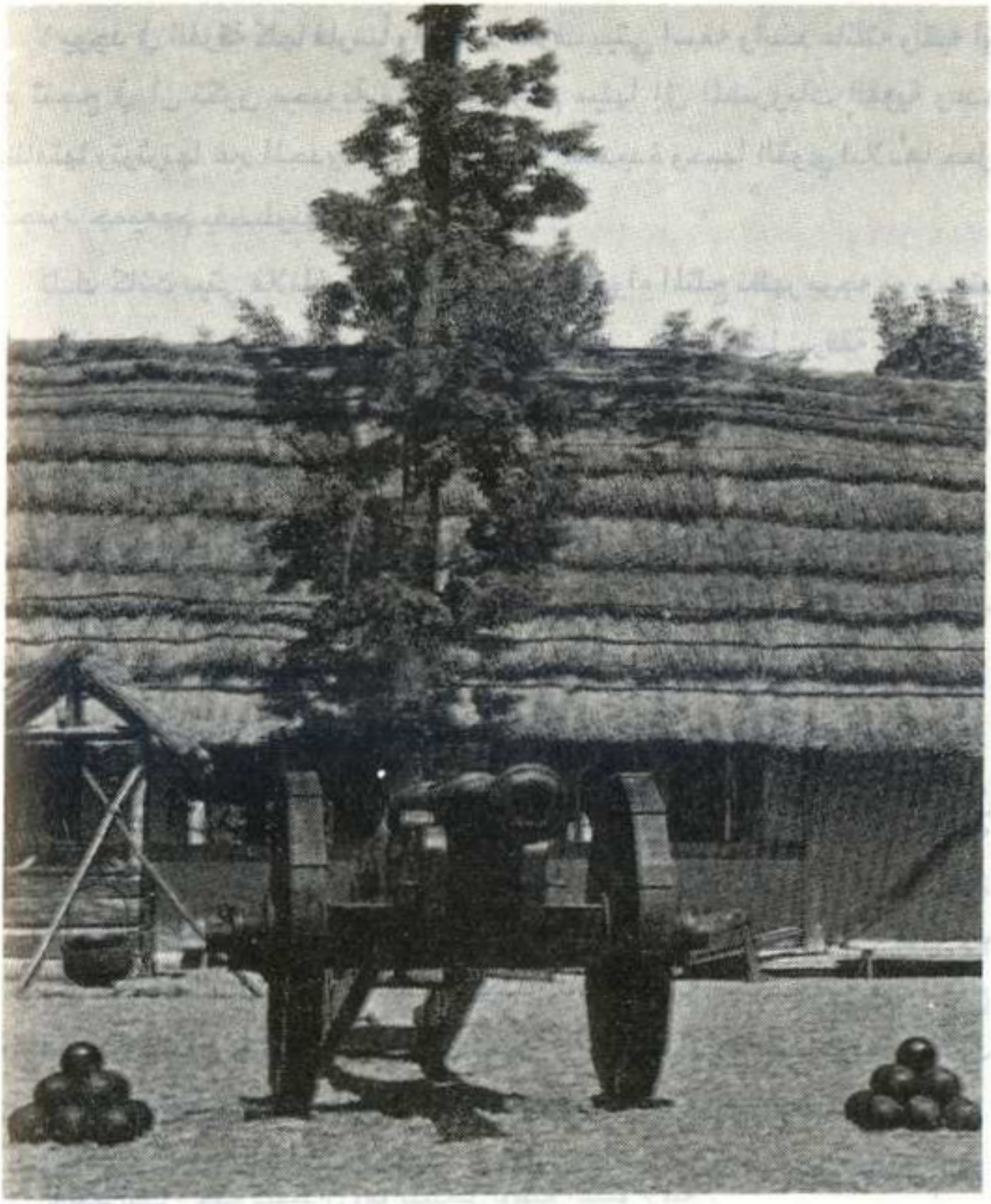

هاتان هدية مُرسلة من المنزل الكبير إلى الرائد دانوودي ، أرسلها صديقه وارتون النقيب في الجيش الملكي .

ـ وهذا ايضاً كلام ملوكي . اضاف الرقيب الذي كان يُعطي هذه التفاصيل للقبطان : إن النقيب يعوّضنا شرف انتصارنا ، على اساس ان العدو يجب ان يدفع النفقات .

استقبل دانوودي الجالس قرب النار مرافقيه بمودة واستعلم عن حال الملازم سنكلتون باهتمام . بعد ذلك غرق في افكاره العميقة حتى أن احداً لم يتجرأ على المخاطرة بإزعاجه .

قدمت بيتي الحساء الذي شارك فيه الضابطان الشابان بجوع لم تكن قد خففته المائدة التي قدّمتها مس بايتون . على العكس اصبح لاوتون متطلباً أكثر بعد الوجبة الجيدة التي شارك فيها هناك . تأمل بحذر الصحن الذي أمامه وسأل :

ـ بيتي ، اي اسم كان يحمل خلال حياته هذا الحيوان الذي صنعت منه الحساء ؟

ـ ياللأسف ! ايها النقيب ! إنها بقرتي المسكينه .

ـ ماذا ! ، جيني ، العجوز ؟

ـ يا للشيطان ! صرخ احد الضباط الشبان وقد ترك من يديه الشوكة والسكين ، إنها البقرة التي رافقتنا كل هذا الوقت ؟

ـ إنها نفسها ، اجابت مسز فلاغانون وقد بدا عليها الحزن . وياللأسف ! أيها السادة ! من الصعب جداً ان نأكل صديقة قديمة كهذه .

ـ صعب جداً في الحقيقة ، ردد لاوتون بنبرة ذات مغزى .

ـ حسناً ! قال نافخ البوق ماسون ، وهو يترك صحنه . لاسناني حساسية أكثر مما لقلب بعض الناس لأنها ترفض مضغ ما تبقى من بقرتنا القديمة .

هدّأ دانوودي نفوسهم وأرضى بطونهم بأن ملأ كؤوسهم بجرعات من الخابية . ورضخ النقيب لاوتون لإلحاح رفاقه ورضي بأن يغني على لحن شائع جداً. تكريماً لبيتي فلاغانون ، اغنية وضعها بنفسه . بينما كان يُنهي المقطع الأخير وسط تصفيق المستمعين ، سُمعت ضربات قوية على الباب ، وتوقف الصخب بسحر ساحر ، أمسك الضباط أسلحتهم استعداداً لكل طارىء . انفتح الباب ودخل الجزارون يدفعون امامهم البائع المتجول ، محدودباً تحت ثقل رزمته .

ـ من منكم النقيب لاوتون ؟ سأل زعيم العصابة .

ـ ها هو في انتظار رغباتك ، أجاب النقيب بصوت صارم فيه سخرية .

ـ في هذه الحال ، أضع الخائن بين يديك . هاهو هارفي بيرش البائع المتجول . الجاسوس .

انتفض لاوتون انتفاضة عنيفة وصرخ :

ـ من أنت أيها السيد لتتكلم دون تكلف ؟ على أي حال هاهو قائدنا الرائد دانوودي وعليك أن تتوجه إليه بالكلام .

ـ كلا ، أجاب الجزار بصوت أجش . إليك أسلّم هذا الجاسوس ومنك انتظر المكافأة الموعودة .

تقدم دانوودي بسطوة جعلت رجل العصابة يتراجع .

ـ هل أنت هارفي بيرش ؟

ـ هذا هو اسمي ، أجاب هذا الأخير بترفع .

ـ أنت متهم بخيانة بلادك . لي الحق في تنفيذ الحكم الملفوظ ضدك .

ـ ليست إرادة الله أن ترسل إليه روحٌ بهذا الاستعجال .

ـ هذا صحيح . لكن بما أن الجاسوسية جريمة لاتُغتفر حسب قوانين الحرب ، حضّر نفسك للموت غداً عند الساعة التاسعة صباحاً .

ـ لتكن مشيئة الله ! أجاب هارفي بهدوء تام .

ـ لقد أمضيت وقتاً طويلاً اراقب الشقي ، تدخل الجزار قائلاً وهو يقترب من الرائد . آمل في انكم ستعطونني المكافأة . لقد أُعلن انها ستكون من ذهب .

ـ ايها الرائد دانوودي ، قال ضابط الحراسة ، نقلت الآن إحدى الدوريات خبراً ان منزلاً أُحرق هذه الليلة في الوادي ، في مواجهة المكان الذي حدث فيه القتال تقريباً .

ـ إنه كوخ البائع المتجول ، أضاف الجزار بصوت منخفض . لم نترك له مكاناً يلجأ إليه . كنت سأحرقه منذ وقت طويل ، لو لم ارغب في استعماله مصيدة للإيقاع بهذا الثعلب اللعين .

ـ تبدو لي رجلاً وطنياً بالغ العبقرية ، قال لاوتون . يا رائد دانوودي هل تسمح لي بأن ادفع إلى هذا المبجل ورفيقيه المكافأة التي يستحقونها ؟

عندما رَدَّ الرائد إيجاباً ، خرج النقيب وساق معه الجزارين . استدار دانوودي مجدداً نحو الأسير :

ـ لقد حُكم عليك إذاً يا هارفي بيرش ، وتم اثبات انك عدو خطير لاستقلال اميركا .

ـ تم اثبات ؟ صرخ البائع المتجول وقد شحب لونه . هل تعتقد ان « واشنطن » يقول في ذلك الشيء نفسه ؟

ـ دون أية معارضة . إنه هو نفسه الذي يلفظ الحكم عليك من فمي .

ـ كلا ! كلا . قال هارفي متعجباً بحدة جعلت دانوودي ينتفض . لن يرسلني واشنطن أبداً إلى الاعدام .

ـ هل لديك دافع ما يجعلك تحصل على عفوه ؟ سأل الرائد بتعجب .

شحب هارفي واضطرب بعمق . سحب من ثيابه علبة صغيرة من القصدير

فتحها وأخذ منها ورقة مطوية نظر إليها بانتباه . وكاد يمدّ يده نحو الرائد ليقدمها إليه ، لكنه سحبها فجأة صارخاً :

ـ كلا ، لن اشتري حياتي بالتخلي عن واجبي . سيموت سري معي .

ـ اعطني هذه الورقة وربما حصلت لك على العفو ، قال الرائد مرتبكاً .

ـ سيموت السر معي ! كرر هارفي بيرش وقد اكتسى وجهه بحمرة قوية .

ـ امسكوا هذا الخائن ، وانتزعوا منه هذه الورقة ! صرخ دانوودي .

نُفذ الأمر توأ . لكن حركة البائع المتجول جاءت أسرع أيضاً وابتلع الورقة قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . بقي الضباط جميعهم دون حركة أمام هذا الدليل على الشجاعة والتهور .

ـ ليقودوني إلى المشنقة قال هارفي بيرش ، وهو يتقدم نحو الباب .

ـ ليس الآن ، اجاب الرائد منتفضاً . سيكون لك حتى الغد صباحاً الساعة التاسعة كي تحضّر نفسك للقاء الموت وجهاً لوجه .

التقط البائع المتجول رزمته ، وبإشارة من الرائد تبع الرقيب المكلف بحراسته ليلاً . أُدخل إلى حجرة صغيرة عند طرف أحد المستودعات ، جعلت منها بيتي فلاناغون حجرة نومها والمخزن الذي يحتوي كل ثروتها . هناك حارس ليلاً نهاراً أمام المستودع الذي كدّست فيه الأغراض والأسلحة الزائدة . وحارس آخر مُكلف بحراسة الخيول يستطيع أيضاً أن يرى مدخل الحجرة الصغيرة . وبما أن هذا الموضع لا يحتوي إلّا على باب واحد دون أيه نافذة ، ظنّ الرقيب انه لن يستطيع اختيار سجن أفضل منه لحجز الأسير فيه .

بعدما شجع البائع المتجول على الاستعداد للموت ، سحب من جيبه كتاباً مقدساً صغيراً ، تركه له ليقوم بتأملاته الأخيرة :

ـ قم بالصلاة لبعض الوقت ، قال الرقيب مشفقاً على البائع المتجول . وحاول

بعدها ان تأخذ قليلاً من الراحة كي تتمكن غداً من الموت كرجل وكمؤمن. لاتُعلل نفسك بالحصول على عفو لأن أوامر الكولونيل سنكلتون حاسمة ويجب ان تُعدم لحظة القبض عليك . لا شيء إذاً يستطيع إنقاذك .

ـ أعـرف ذلك ، صرخ بيـرش . فات الأوان . لقـد دمرت جـوازي الوحيد للخلاص .

ـ اي جواز ؟

ـ لا شيء ، اجاب هارفي وقد طأطأ راسه . لكن على الأقل هـو سينصفني في ذكرى مماتي .

ـ من هذا ، هو ؟

ـ لا أحد ، اجاب بيرش باقتضاب .

ـ لاشيء ولا أحد ؟ لن يكون ذلك ذا فائدة كبيرة بالنسبة إليك ، قال الرقيب وهو ينهض للذهاب . لكن كنت اريد ان اخدمك بشي ما لانني لا احب ان ارى رجلاً يُشنق كانه كلب .

ـ إذن ! تستطيع إبعاد هذه الميتة الذليلة عني ، صرخ هـارفي وهو ينهض بحماسة . اوه ! اعطيك اي شيء لتسهيل فراري .

ـ لاشيء يمكن ان يجعلني ارتكب هذا الخطأ ! اجاب الرقيب باستياء . هيا ! صالح نفسك مع الرب فليس لك إلاّ اللجوء إليه .

إلتقط منديله وخرج . ارتمى بيرش بيأس على فراش « بيتي » ، بينما طلب الرقيب من الحارس ان ينتبه إلى السجين باهتمام كبير .

ـ لا تترك احداً يقترب وفكر انه إذا هرب ستدفع الثمن من حياتك .

ـ تعليماتي ان اترك بيتي تدخل وتخرج عندما يحلو لها .

ـ حسناً ، لكن انتبه لئلا يهرب هذا البائع المتجول الماكر مختبئاً تحت ثيابها .

وذهب الرقيب ليكرر التعليمات نفسهاللحراس الآخـرين . ساد الصمت في سجن البائع الافرادي . ثم سمع الحارس عند الباب شخيراً قوياً يَصدر عن الحجرة وأخذ يفكر باللامبالاة التي يظهرها رجل ينام بهذا الشكل عشية موته. حتى انه فكر في إزعاج هذه الراحة غير العادية بإيقاظ الأسير لاغراقه في التأنيب والتوبيخ ، وكان يرهب كل جرائم الخيانة التي أُتّهم بها هارفي ، لكنه خجل من التصرف بهذه القسوة .

قاطعت المراة افكاره عند وصولها لتنام بدورها . دخلت إلى حجرتهـا وهي تحتج على جنود لاوتون الذين أيقظوها من غفوة هادئة استغرقت فيها قرب النار في الصالة ، وبعد قليل سمع الحارس مجدداً شخير البائع المتجول القوي .

في تلك اللحظة جرى استبدال الحرس ، ومرر الحارس كلمة السر لمن سيحل مكانه وهو يضيف :

ـ تستطيع أن تدفىء رجليك بالقفز يا جون . الا تسمع موسيقى الجاسوس ؟ بعد وقت قليل ، ستُشَكِّل معه « بيتي » ثنائياً .

ضحك العريف ورجاله مقهقهين وتابعوا جولتهم . بعد بضع لحظات ، فُتح باب الحجرة وخرجت منه بيتي متوجهة إلى المطبخ .

ـ من هناك ؟ صرخ الحارس وهو يمسك الفستان ، هل انت متأكدة من أن الجاسوس ليس مختبئاً في جيوبك ؟

ـ الا تسمعه يشخر في حجرتي ، ايها الشقي ؟ صـرخت بيتي باستيـاء ، سـأذهب لأشكوكم عند النقيب لاوتون ، لأنكم جعلتم هذا المحكوم بالاعدام ينام في سريري الشخصي . اجل ايها الشقي ، سأوقظ النقيب نفسه وأقوده إلى هنا لينصفني .

عند هذه الكلمات ، لم يفعل الحارس سوى ان يضحك . دارت بيتي فلاناغون حول المبنى وتوجهت نحو موقع الرجل المفضل لديها ، أي النقيب لاوتون ، لتطالب بالعدالة . لكن أياً من الاثنين أكان النقيب ام المرأة ، لم يظهر مجدداً طوال الليل . وبقي الشخير القوي مستمراً في سجن هارفي بيرش .

الفصل السابع

تبع الجزارون بحماسة النقيب لاوتون الذي قادهم نحو مركز القيادة حيث ترك رجاله . كان هذا في مزرعة كبيرة مُحاطة بحقل مع مستودع تأكل تحته الخيول المسرجة العشب بهدوء بينما يستريح الرجال في المخازن بكامل ثيابهم وعدّتهم .

استدار زعيم العصابة راضياً نحو النقيب وكان يظن أن نفسه وضيعة كنفسه هو . لكن فجأة ، صرخ لاوتون بنبرة فيها احتقار بعدما اشار إلى رجاله :

ـ من حسن الحظ أن مواطنينا ليسوا جميعاً لصوصاً شبيهين بك ! وإلاّ لكنّا سنبقى طويلاً تحت نير انكلترا .

ـ ماذا ! قال رجل العصابة متعجباً وهو يتراجع خطوة ويضع بندقيته على كتفة بحركة غاضبة . هل خدعتموني إذاً ؟ هل انت عدوي ؟

ـ شقي ! أجاب لاوتون وقد ازاح السلاح بضربة من سيفه . إذا قمت بحركة اخرى من هذا النوع سأشقُّ راسك إلى الكتفين .

ـ هكذا إذاً . الن تدفع لي ايها النقيب لاوتون ؟ قال اللص وهو يرتجف وقد راى مفرزة من الخيالة تحاوط عصابته بصمت .

ـ هل أدفع لك ؟ أجل طبعاً ، أريد أن أدفع كل ما عليّ . خذ ، قال النقيب وهو يرمي ارضاً محفظة فيها جنيهات . ها هي النقود التي ارسلها الكولونيل للذين سيقبضون على الجاسوس . أخفضوا اسلحتكم ايها اللصوص ! وتحققوا من وجود المبلغ فيها .

انصاعت المجموعة ذليلة لهذا الأمر ، وبينما كان الجزارون منشغلين بفرح برؤية زعيمهم يحسب القطع الذهبية انتزع بعض الخيالة سراً الذخيرة من بنادقهم .

ـ حسناً ! هل المبلغ كله هنا ؟ هل حصلتم على المكافأة الموعودة ؟

ـ لا ينقص منه شيئاً ، أجاب الزعيم ، وبعد إذنك سننصرف .

ـ لحظة ! أجاب لاوتون بحزمه المعتاد . لقد كنا أوفياء لوعدنا . والآن علينا ان نكون عادلين . ندفع لكم لانكم قبضتم على الجاسوس . لكننا نعاقبكم كلصوص ومفتعلي حرائق . أمسكوهم ايها الشجعان وعاملوهم حسب قانون موسى : أربعون ضربة سوط إلّا واحدة .

أمر كهذا كان عيداً بالنسبة إلى الخيالة . في لمح البصر جُرِّد الجزارون من ثيابهم ، ورُبطوا إلى جذع شجرة بحبال جلدية وجُلدوا خصوصاً بأغصان لينة قُطعت من شجرات التفاح التي في الحقل . ونال زعيم العصابة على أساس « انه القائد الأعلى » حصة مهمة خصصت له . وارتفعت صرخات مخيفة تحت ضربات الجنود . بعدها أمَر النقيب رجاله بحلّ وثاق اللصوص والصعود إلى خيولهم للانضمام إلى موقعهم الجديد بعيداً .

ارتدى رجال العصابة ثيابهم بسرعة ، التقطو البنادق وابتعدوا بصمت فيه وعيد كبير ، ما أن أصبحوا على مسافة قليلة قرب غابة صغيرة تتعاكس ظلالها الكثيفة مع ضوء القمر الشاحب ، حتى استداروا بسرعة ، صوّبوا في اتجاه الجنود واطلقوا . هذه الحركة بانت جيداً وسُمع صوت الزناد بعد الضغط عليه . فأجاب الخيالة على ذلك بضحكات وقهقهة عظيمة وصرخ القبطان :

ـ آه ! ايها الاشقياء انا اعرفكم جيداً وقد جعلتهم يفرغون بنادقكم من الرصاص .

ـ كان يجب ان تأخذ تلك التي في جيبي ايضاً ! غمغم الزعيم وفي الوقت نفسه تقريباً اطلق النار .

صفرت الرصاصة قرب اذن لاوتون دون ان تصيبه . احد الجنود الذين لاحظوا حركة رجل العصابّة ، غرز مهمازه في جنب حصانه وانطلق لملاحقة الجزار . كان لهذا الأخير الوقت للإختباء في الغابة لكن بسبب استعجاله اسقط بندقيته ومحفظة النقود ايضاً التي التقطها الخيّال وحملها بأمانة إلى النقيب . رفض لاوتون استعادته وفي اليوم التالي وزعت النقود بالتساوي على كل جنود المواكبة .

أكملت المفرزة سيرها نحو الموقع الجديد . وعاد النقيب لاوتون نحو مسكنه ، ففوجيء إذ رأى عند حدود الغابة في الجهة التي اختفى فيها الجزارون ، شكلاً إنسانياً يمشي بسرعة بين الصخور . اقترب منه بحذر ولشدة دهشته عرف من بعيد قامة بيتي .

ـ ها انت ! بيتي هل تسيرين وانت نائمة ام تحلمين وانت مستيقظة ؟ ألا تخافين من مصادفة شبح جيني العجوز في مرعاها المعتاد ؟

ـ آه ! ايها النقيب أجابت المرأة ، ابحث عن أعشاب للجرحى فهي نافعة أكثر

عندما نقطفها مع بروز القمر . اجد منها خلف تلك الصخور ، ويجب ان أُسرع وإلاّ فَقَدَت تأثيرها .

ـ كم انت مجنونة ! من الافضل لك ان تكوني في سريرك بدلاً من المخاطرة بتحطيم عظامك وسط هذه الصخور إذا ما سقطت . ثم إن الجزارين قد هربوا من تلك الناحية ويمكن ان ينتقموا منك بسبب التأديب الذي اخضعتهم إليه .

عند هذه الكلمة ، «الجزارون » ، ترددت بيتي لحظة لكنها عاودت سيرها دون ان تجيب وتوغلت في الغابة .

عندما وصل لاوتون إلى فندق فلاغانون سأله الحارس عما إذا كان قد التقى « بيتي » التي خرجت منذ قليل قائلة انها ستبحث عنك لتطلب الإنصاف بسبب قلة احترام الرجال . بدا لاوتون مدهوشاً كأن فكرة جديدة قد صعقته . استدار نحو الحقل قام ببضع خطوات صوب الغابة ثم قرر العودة إلى المنزل وارتمى على سريره . حيث لم يتأخر عن النوم .

خلال هذا الوقت كان الجزارون الذين تفرقوا في الغابة . قد انتهوا بالاجتماع معاً وإشعال نار مستعرة جلسوا حولها لتناول العشاء ، وهم يُحضِّرون خطة الانتقام للتخفيف من حقدهم المتأجج على الخيالة . ناقشوا اكثر من خطة ، تركوا بعضها لانها غير مؤكدة او تعرّضهم لخسارة كبيرة جداً . ثم اتفقوا اخيراً على مشروع بدا انه يوفر لهم الإنتقام والمنفعة في الوقت نفسه . نوقش الأمر باهتمام ولم يعد ينقص هذه الخطة اللصوصية شيئاً عندما انتفضوا إذ سمعوا صوتاً يصرخ في البعيد :

ـ من هنا ايها النقيب لاوتون ! من هنا ! ها هم هؤلاء الرعاع يتناولون العشاء بهدوء قرب النار . بسرعة انزل عن الحصان وجهزّ مسدسيك .

هذه الكلمات المخيفة سببت الإضطراب لرجال العصابة . نهضوا دفعة واحدة . توغلوا في الغابة وهربوا بأسرع مما توقعوا . عندما اختفوا جميعاً

خرجت بيتي فلاغانون من كنف الظلمة واستولت بهدوء على حقائب الذخيرة التي تركها الجزارون . جلست ببرودة اعصاب كبيرة وبدات تحضّر وجبة جيدة مفكرة بعمق . ثم اختارت بعض الثياب التي تناسبها وتوغلت بدورها في الغابة الكثيفة .

لكن الرائد دانوودي لم يَذق إلا استراحة قطعتها غالباً افكاره القلقة ، بينما كان مرافقوه مستسلمين لنعومة النوم .

ما ان بدات اولى تباشير النهار بالظهور شرقاً حتى نهض متعباً اكثر مما قبل من نومه وخرج ليفكر وفق ما يحلو له في وضع هنري وارتون الخطير . لم يعد عنده ادنى شك في ان صديقه بريء.لكنه لم يكن متأكداً من ان مجلس الحرب سيشاطره هذا الراي ، وبصرف النظر عن محبته لهنري احسّ انه إذا قُضي على الاخ سيفقد كل امل في الزواج من الأخت .

عشية اليوم السابق ارسل مبعوثاً إلى الكولونيل سنكلتون ليطلب تعليماته . كلما اقتربت لحظة تلقّي الأوامر ازداد قلقه .

بعدما اربكته افكاره ، اجتاز الحقل وتقدم نحو الصخور التي تحاوط الغابة دون ان يعرف جيداً إلى اين تقوده نزهته . فجأة ، انتفض عندما سمع صوتاً يناديه :

ـ توقف او تموت .

إستدار دانوودي بدهشة وراى على مسافة قليلة رجلاً واقفاً على قمة صخرة مصوباً نحوه بندقية . لشدة دهشته ظن انه يرى البائع المتجول . بما انه لم يرغب في طلب نجدة ولا الفرار اجاب بحزم :

ـ إذا اردت قتلي اطلق النار لانني لايمكن ان اسلّم نفسي للأسر ابداً .

ـ كلا ايها الرائد ، اجاب بيرش ، لا اريد حياتك ولا حريتك .

ـ ماذا تريد إذاً ايها الإنسان الغامض ؟

ـ مساء البارحة كنت سيد حياتي . اليوم حياتك في تصرفي لكنني لن استغل ذلك وأنت حُرّ . اسمع نصيحتي يا رائد دانوودي : لا تتجول ابداً على اطراف غابة ما دون ان تكون مسلحاً ومواكباً لانه على مسافة قصيرة من هنا رجال يمكن ان يعاملوك بشكل مختلف جداً .

ـ هل لك اصدقاء إذاً سهلوا فرارك ؟

ـ كلا ، كلا ، اجاب هارفي ساهماً . انا وحدي تماماً . لا احد يعرفني إلّا الله وهو .

ـ من هذا ، «هو» ؟

ـ لا أحد ، اجاب البائع المتجول وقد استعاد هدوءه . لكن ليس الأمر نفسه بالنسبة إليك ايها الرائد . انت شاب سعيد لديك قريباً من هنا اصدقاء تحبهم . ضاعف يقظتك لأن خطراً عظيماً يتهددهم .

عندما انهى هذه الكلمات اطلق البندقية في الهواء ، رماها عند قدمي دانوودي واختفى داخل الغابة .

هذا المشهد الغريب القى الرائد في نوع من الدهشة ، لم يخرج منها إلا عندما سمع صوت البوق وركض الخيول : لقد احدثت الطلقة النارية حالة إنذار في المخيم وجذبت إحدى الدوريات إلى ناحية دانوودي . عاد هذا الاخير مباشرة إلى مركز القيادة دون ان يعطي اي تفسير ، وذهب يُصاحبه ضباطه ويتقدمه الرقيب إلى السجن الذي سُجن فيه البائع الغامض . كان من الصعب عليه أن يعتقد ان ما رآه لم يكن حلماً .

ـ لقد حرست سجينك جيداً دون شك ؟ سأل الحارس الذي كان امام الباب .

ـ إنه ما يزال نائماً ، اجاب هذا ، ويُصدر ضجة إلى درجة انني بالكاد سمعت الأبواق تعطي الإنذار .

ـ افتح الباب واحضره إلي قال الرائد للرقيب .

أطاع هذا الأخير تواً القسم الأول من الأمر : فتح الباب ولشدة دهشته وجد الحجرة في فوضى رهيبة ، ثياب البائع المتجول ملقاة فى إحدى الزوايا وثياب بيتي مُفردة بفوضى على الأرض . المراة نفسها كانت ممددة على سريرها بثيابها بإستثناء قبعتها الكبيرة السوداء من القش . كانت تنام بعمق لكن أصوات التعجب من الرقيب أيقظتها .

ـ ماذا في الأمر ؟ هل يريدون الفطور ؟ صبراً يا جوهرتي ، سأحضر لكم وجبة لم تتذوقوا مثلها من قبل .

ـ لايتعلق الأمر بالطعام ! قال الرقيب بصوت كالرعد . الف لعنة ايتها اللعينة ! لقد سهلّت فرار هذا البائع الملعون !

ـ أنت لعين ايها الرقيب أنت وكلبك البائع المتجول ! لم أُسهِّل هرب احد .

ـ صمتاً ، قال دانوودي . ياسادة هذه المسألة تتطلب توضيحاً . ليس لهذه الغرفة منفذ غير الباب ولايمكن ان يكون السجين قد خرج دون ان يراه الحارس . لا بد أن هذا قد نسي أو ارتشى . لنحضر كل الذين تولوا الحراسة عند هذا الباب في اثناء الليل .

كانوا جميعاً في مركز الحرس . احضروا تواً . كلهم اصرّوا على ان احداً لم يخرج من الغرفة خلال دوامهم . واحد فقط صرّح أن بيتي خرجت منها وانه تركها تمر حسب التعليمات التي أُعطيت إليه .

ـ أنت تكذب ! صرخت بيتي مستاءة لقد نمت هنا طوال الليل ببراءة العجل الذي يرضع من امه .

ـ سيدي ، قال الرقيب لدانوودي . هاهو الكتاب المقدس الذي تركته لذاك الجاسوس لقد تركه هنا في الزاوية وهناك شيء مكتوب على الصفحة الأولى .

امسك أحد الضباط الكتاب المقدس وقرأ بصوت عال مايلي :

« إذا توصلت إلى الهرب . اشهد ان ذلك لم يكن الاّ بمساعدة الله الذي اضع نفسي في تصرفه . انا مضطر لاخذ بعض الثياب من تلك المراة لكنها ستجد تعويضاً عن ذلك في جيبها . انا الموقع هنا هارفي بيرش .

ـ كيف ذلك ! صرخت المراة هل سرق اللص من الأرملة الفقيرة ما تملكه ؟ يجب أن تلاحقوه وتشنقوه ، أيها الرائد دانوودي .

ـ فتشّي جيوبك ، يا بيتي قال نافخُ البوق بدا ان الأمر يُسلّيه جداً .

اطاعت بيتي وسحبت منها جنيهاً .

ـ اية جوهرة هو ذلك البائع المتجول ! صرخت بسرور . هل يتمكن من العيش طويلاً والنفاذ من المشنقة !

خرج دانوودي من الحجرة بصمت صادفت نظرته نظرة النقيب لاوتون فأخذه جانباً وسار بضع لحظات معه وهو يتحدث بسرعة . عاد لبيتي مزاجها الساحر وبقيت وحدها مع الرقيب الذي سألها مفكراً :

ـ قولي لي يابيتي هل تعتقدين انني حقاً قد سجنت هنا مساء البارحة هذا البائع المتجول الجاسوس ؟

ـ ومن تريده ان يكون اذاً يا جوهرتي ؟

ـ الشيطان .

ـ ماذا ! الشيطان !

ـ نعم الشيطان نفسه متنكراً كانه البائع المتجول .

ـ لكن اتعتقد ان الشيطان كان سيدفع لي ثمن ثيابي ويدفع بسخاء ايضاً !

ـ ربما كانت النقود مزيفة ؟ قال الرقيب منزعجاً قليلاً .

ـ هذه القطعة النقدية تبدو لي صحيحة لكن على أي حال سأرجو النقيب أن

قاطع المراة احد الجنود الذي اتى لينذرها ان الضباط يطالبون بفطورهم .

خلال الوجبة وصل اكثر من رسول تباعاً ، احدهم كلّف الرائد بإرسال النقيب لاوتون إلى اقرب مركز على راس كوكبة من الفرسان .وَضع هـذا الأمر حـداً لإرتبـاك دانوودي ، عندما اعطى اوامره إلى لاوتون طالباً منه إحضار اسيره بكثـير من الإصرار ، تـذكر انـه لم يترك تعليمـات في ما يختص بـالكولونيـل « ويللمير » وقرر أن يذهب بنفسه إلى المنزل الكبير ليهتم بذلك ويودّع فرانس في الوقت نفسه .

وجد الفتاة باكية فأخذ يدها بحنان :

ـ يا عزيزتي فرانس لماذا هذا الحزن ؟ لا تجعلي وضع اخيك يُقلقك . سأركع بنفسي عند قدمي « واشنطن » ولن يرفض لي ذلك بالتأكيد .

مسحت فرانس بسرعة دموعها وشكرت دانوودي بجفاء جعله يتسمّر مكانه :

ـ لماذا تتكلمين معي بقسوة كهذه يا فرانس ؟

ـ ولماذا الرائد دانوودي لم يُشرِّف بيتنا منذ ايام عدة ؟

هل نسي ان فيه صديقاً جريحاً وآخـر في ظروف محزنة ؟ الم يعد يتذكر ان خطيبته موجودة فيه . او انه يخشى ان يلتقي فيه اكثر من شخص يُطلق على نفسه هذا اللقب ؟ آه يا رائد دانوودي كم خدعتني !

ـ ارى الآن ما يحزنك يا فرانس لكنك مجحفة بحقي اقسم لك . انت تحملينني على اليأس. سأنطلق اليوم في مهمـة خطيرة وربما لن اعود منها ابداً ، هل نفترق على هذه الحال ؟

رفعت فرانس نحوه عينيها المبللتين بالدموع .

ـ انا لا اتّهمك . لا او بخك على اي شيء . لكن دون شك ، من ستجعلك سعيداً ليست فتاة ضعيفـة وخجولة مثلي . كلا يا دانوودي يجب ان تتزوج إنسانة قوية

مثلك . من اجلها سأتخلى عنك .

ـ فرانس حبيبتي لا أستطيع أن احب إلّاإمـرأة ناعمة وضعيفة مثلك . انت وحدك تستطيعين إسعادي .

ـ وداعاً ، قالت الفتاة بضعف يجب أن تنساني.فكّر في وطنك وكن سعيداً

هربت بخفة وشعر الرائد باليأس فلكز حصانه بالمهماز ، وانطلق نحو فرقته بغضب وانضم إليها بعد وقت قليل على ضفاف « الهودسون » .

دخلت فرانس إلى البيت ممزقة القلب . كان من السهل عليها أن تلاحظ حب إيزابيل للرائد

وفي اندفاع من كرم اخلاقها حاولت الإنسحـاب امام حب كهذا . لكن ماكاد خطيبها يختفي حتى احسّت بحالتها البائسة وتبلل خداها بدمعات كبيـرة لم تحاول تجفيفها .

الفصل الثامن

ترك دانوودي في قرية « الجهات الاربع » القبطان لاوتون بسبب الرضوض التي كان ما يزال يعانيها . انتدبه لحراسة الجرحى والامتعة . كما لمراقبة المنزل الكبير لأن حديث البائع المتجول أقلقه على سلامة هؤلاء الذين يُحبهم . أسِفَ لاوتون لأنه لن يكون مع رجاله الذين أوكل أمرهم إلى نافخ البوق ماسون استقر إذاً في أوتيل فلاغانون وهو يلعن في سرّه هذه الاستراحة التي ينتظرون فيها لقاء العدو .

انضم الطبيب إليه بعدما اعتنى بالجرحى وأعلن نيته في تشريح جثة البائع المتجول الذي كان يظن انه قد شُنق . دَهش جداً عندما علم بفـراره وبفضل النقيب لم يَفتْه اي تفصيل يتعلق بهذه المسألة الغامضة .

عندما انتهت تلك القصة قال الطبيب انه عائد إلى المنزل الكبير ليستعلم عن صحة الملازم سنكلتون ، قرر لاوتون مرافقته . ركب الإثنـان الحصان وسارا في طريقهما . في محاذاة الصخور التي تجاور اطراف الغابة . دار حديث الصديقين عن عشاء الليلة السابقة والمقاطع التي غنّاها النقيب لاوتون تكريماً لـ « بيتي » واعترف الطبيب بتواضع انه كتب اغنية عن الحب والطب .

شجعّه لاوتون بإصراره الماكر فقرر الطبيب ان يغني الاغنية . كان في المقطع الثالث منها عندما قاطعه النقيب فجأة :

ـ اصمت ! ما الذي يُصدر الضجة بين الصخور ؟

ـ إنه الصدى ، أجاب سيتيفرايف متحضراً لإنهـاء المقطع الرابع .

في تلك اللحظة تدحرج حجر امامهما دون ان يؤذي احداً .

ـ إنها قذيفة اطلقها صديق قال لاوتون مفكراً . لايبدو انه ينوي الأذية .

ـ لا يمكن ان تُسبب الحجارة إلّا رضوضاً لا خطورة فيها اضاف الطبيب وهو ينظر إلى كل الجهات . لكن من اين يُمكن ان يأتي ؟ هل سقط من السماء لأنه لا يوجد كائن حيّ واحد حوالينا .

ـ هذه الصخور يُمكن ان تُخفي بسهولة فرقة كاملة ، اجاب لاوتون وهو يقفز أرضاً ليلتقط الحجر . اوه ! اوه ! وجدت شرحاً لهذا الغموض :

وفتح ورقة مربوطة بمهارة إلى الحجر ، قرا هذه الكلمات المكتوبة بخط يُقْرا بصعوبة :

« طلقة البندقية مداها اطول من الحجر وهذه الصخور تخفي اشياء خطيرة أكثر مما تخفي الأعشاب للجرحى . يمكن ان يكـون الحصان جيـداً لكن هل يستطيع تسلق الصخور ؟ » .

ـ صحيح ، قال لاوتون وهو يـركب حصانـه ، أن الشجاعـة والعمل همـا

طريقتان ضعيفتان ضد الاغتيال .

وصرخ بصوت عال :

ـ شكراً جزيلاً ايها الصديق المجهول سأتذكر رايك . ارتفعت يد ضعيفة فوق كتلة من الأشواك لوحت لحظة واختفت .

ـ هاك مغامرة غير اعتيادية . قال الجرّاح مدهوشاً . ومضمون هذه الورقة غامض جداً .

ـ ايها الطبيب ، اجاب النقيب ساهماً . اسمح لي بالقول انك وضعت خطة لتشريح رجل شريف جداً .

ـ ماذا ! هذا البائع المتجول ! ذاك الجاسوس الذي يخدم العدو ؟

ـ جاسوس ؟ هذا ممكن . لا اعرف . لكن قلبه يليق بجندي شجاع .

بينما كان يتمتم تلك الكلمات ساهماً تفرسّ النقيب في صخرة تطلّ إلى الامام فوق الطريق .

ـ ما لا يستطيع الحصان تسلقه يمكن ان تتخطاه رِجْل الانسان . قال وهو ينزل مجدداً عن حصانه ويتسلق الصخرة .

ما ان قام بتلك الحركة حتى راى رجلاً يهرب مسرعاً ويختفي خلف الجهة الأخرى من الصخرة .

ـ انطلق ياسيتيغرايف انطلق ! صرخ قائلاً . إلْحق هذا اللص واطعنه بالسيف إذا استطعت .

اندفع الطبيب على حصانه وراى بعد قليل رجلاً مسلحاً ببندقية يجتاز الطريق ويركض نحو غابة كثيفة في الجهة الاخرى .

ـ توقف ياصديقي توقف . انتظر وصول النقيب لاوتون ! صرخ الجرّاح .

لكن الرجل اسرع راكضاً اكثر : عندما وصل إلى اطراف الغابة استدار

واطلق النار نحو الطبيب واختفى في الدغل .

ـ في اي اتجاه هرب ؟ صرخ النقيب الذي إنضم إلى سيتيغرايف . .

ـ جون الستُ ضابطاً غير مقاتل ؟

ـ في اي اتجاه هرب هذا الشقي ؟ كرر لاوتون وقد نفذ صبره .

ـ هناك حيث لاتستطيع ملاحقته : في اتجاه الغابة . لكن قل لي الستُ ضابطاً غير مقاتل ؟

ـ لماذا تركت هذا اللص يُفلت منك ؟ قال لاوتون محتداً . لو اوصلته حيث استطيع قتلهلكنت منحتك بديلاً من البائع المتجول لتشرّحه .

ـ كيف استطيع منعه من الفرار ؟ لقد اجتاز ذلك الحـاجز دون أن يتكـرم بالإنصات إلى ما قلت من انك ترغب في التحدث إليه .

ـ في الحقيقة ؟ انه شقي قليل التهذيب . لكن لماذا لم تقفز انت ذلك الحاجز ؟ بيتي فلاغانون نفسها لو امتطت بقرتها لاستطاعت اجتيازه .

ـ أيها النقيب لاوتون ، اجاب الطبيب بترفع ، تذكّر انني لست بطل الفرقة في الفروسية ولست الرقيب المكلف بالتمارين ولست نقيباً لا يحرص على حياته ولا على حياة اعدائه . لست ياسيد سوى الرائد ـ الجراح لفرقة الخيالة . لا اكثر .

أدار راس حصانه نحو المنزل الكبير وعاود المسير يتبعه النقيب الذي قال له بصوت استعاد هدوءه :

ـ ياللشيطان ! أيها الطبيب العزيز ، لا نستطيع ان ندعّي اننا نعرف ركوب الحصان عندما نجلس عليه على هذا الشكل : الساقان متباعدتان . يجب أن نضغط اقل على اللجام ونشدُّ الركبتين اكثر إلى جنبَي المطَية .

ـ مع الاحترام الكامل لرايك . أيها النقيب ، اعتقد انني مطلع كفاية على عمل العضلات في الركبتين وكل أجزاء الجسم . وفي المناسبة ياعزيزي هل تعرف ما

هي أكبر لذة في الحياة ؟

ـ هذا سؤال صعب لايمكنني الإجابـة عليه .

ـ ابداً . إنها في رؤية الأذية التي سببها جرح ما تزول بفضل تقدم العلم . لقد كسرت مرة اصبعي الصغير لأعمل على تطبيب الكسر ومراقبة مراحل الشفاء . لن أعرف في حياتي كلها لذة تفوق هذه . لاشك في ان الأمر كان سيكون حماسياً أكثر . لو كان يتعلق بعضو أكثر اهمية كاليَد او الرِجْل على سبيل المثال .

ـ او العنق ، اضاف النقيب . وتوقفت المحادثة عند هذا الحد بسبب وصولهم إلى المنزل الكبير .

بما ان أحداً لم يظهر ليفتح لهما الباب تقدم الصديقان بمفردهما حتى وصلا إلى الصالة وتوقفا فجأة عندما شاهدا الكولونيل « ويللمير » راكعاً امام سارة . نهض الكولونيل باستعجال وهو يتمتم بعض الكلمات غير المفهومة . وانسحبت الفتاة بحجة إخبار عمتها عن وصول الضابطين وقد بدا عليها الإحمرار كانها وردة .

بعدما عرض الطبيب خدماته على الكولونيل الذي رفضها بنزق توجـه نحو غرفة « سنكلتون » ورافقه لاوتون .

مرت أيام عدة دون ان يحدث شيء لافت إن في المنزل الكبير ام في « الجهات الأربع » . والنقيب لاوتون يلجم نفسه بعدما نفذ صبره ويزداد انزعاجه يوماً عن يوم لأنه لن ينضم إلى الرائد لقيادة الفرقة . في احد الأيام ، دخل إلى غرفته في فندق فلاغانون فرأى على حقيبته ورقة وُضعت عمداً عليها كتابة بخـط عرفـه سريعاً : كان هذا الخط نفسه الذي حذّره من الإغتيال . فتحها مباشرة وقرأ الآتي : «لن يطلع القمر إلّا بعـد منتصف الليل . إنـه وقت مناسب للعمـل في الظلام » .

اخذ النقيب يفكر بعمق في طبيعة هاتين الورقتين وفي الدوافع التي تدفع البائع

المتجول إلى الإهتمـام كثيراً بالرجل الذي كان عدوه اللدود . كان لاوتون يعرف انه متهم بالتجسس لأنه أعطى معلومات للجنرال الإنكليزي عن تحركات الجيش الأميركي . وإن لم تتسبب تلك الخيانة بشيء فلأن « واشنطن » لحسن الحظ ابدل الخطة في الوقت الذي كان الإنكليز يتحضرون فيها . لكن هذا لايخفف جريمته ابداً .

بينما كان لاوتون يُجيل هذه المواضيع في راسه عاد سيتيغرايف من زيارته اليومية للمنزل الكبير حاملاً رسالة من مس بايتون تدعو فيها النقيب إلى العشاء مساء . اخبره الطبيب أن كاهناً من الجيش الأميركي وصل لمبـادلة الجرحى الإنكليز حاملاً أمراً من الكولونيل سنكلتـون كي يتم تسليمهم إليه . ارتـدى لاوتون وسيتيغرايف ثياب المناسبات وانطلقا إلى المنزل الكبير فوصلا عند غروب الشمس إلى الوادي .

وجدا كل ضيوف المنزل مجتمعـين في الصالة في ثيـاب السهرة ويبـدو ان وجوههـم تحمل خبراً مهماً استقبلتهما مس بايتـون بحرارة حتى أن الطبيب نفسه رغم قلة ملاحظته . بدا يشك في ان شيئاً ما سيحدث عندما راى الكاهن يدخل بثوبه الكنائسي يتبعه الكولونيل « ويللمير » في زيّ رسمّي وسارة تشّـع بالبهجة .

ـ جون ماذا يحـدث ؟ سأل سيتيغـرايف بصوت منخفض اجـاب لاوتون بالطريقة ذاتها لكن مقطباً حاجبيه :

ـ أليس من العاران يختطف احد اعدائنا في بلادنا واحدة من اجمل ورداتنا بهذه الطريقة ؟

ـ هذا صحيح ياجون وإذا لم تكن طباعه كزوج افضل مما هي كمريض . أخشى أن تعيش بائسة معه . اترى كم يبدو ساهماً منشغل الأفكار ومنزعجـاً تقريباً ؟

ـ من يبالي ! أجاب لاوتون بنزقٍ ، لقد اختارته من بين اعداء البلاد ويجب ان تتحمل عناء اختيارها .

تقدم مستر وارتون في ثوب مخملي جديد لمصافحة الطبيب والنقيب معلناً زواج ابنته الكبرى من الكولونيل « ويللمير » . اضاف ان الخطيبين كانا يعرفان بعضهما منذ وقت طويل .

بعدما انضمت إيزابيل مع اخيها الى عائلة وارتون تحضّر الكاهن لبدء المراسم . تقدم من الخطيب سائلاً عن خاتم الزواج الضروري لإتمام الزفاف اعترف « ويللمير » انه لم يفكر في شراء واحد . سأل الكاهن مستر وارتون فتلقى هذا عن ذلك ، ملاحظته ساهماً دون ان يفكر حقاً في ما سمعه . لقد افقده رحيل ولده كل قوة . وقد منح موافقته على زواج ابنته المستعجل بشرود الذهن كما يفعل الآن وهو يُجيب على اسئلة الكاهن ، وقد وافق لهدف واحد هو عدم ترك اخته وابنتيه دون رجل يحميهن إذا وقع له حادث ما .

شدّد الكاهن على استحالة إجراء مراسم الزفاف دون خاتم الزواج ونظر الجميع بعضهم إلى البعض الآخر بتردد . كانت مس بايتون تعرف ان خاتم زوجة اخيها المرحومة موجود مع جواهر اخرى واواني العائلة الفضية منذ بداية الإضطرابات في مخبأ يعرفونه، لكن بما ان التقاليد تفرض على الخطيب إهداء الخاتم لعروسه لم تنبس ببنت شفة وفعلت سارة مثلها تأدباً . اما فرانس التي لم يكن يعجبها هذا الزفاف ابداً إذ لم تكن تثق بالكولونيل « ويللمير » فقد امتنعت تماماً عن الكلام . لكن الطبيب سيتيفرايف وضع حداً للارتباك العام .

ـ سيدتي ، قال بخجل ، إذا كان خاتم متواضع ... كان ملكاً لإحدى شقيقاتي .. يُليق بشرف كهذا سيكون من السهل جداً إحضاره من « الجهات الأربع » .

شكر الكولونيل سيتيغرايف بحرارة ، واقترحت مس بايتون إرسال سيزار لإحضار الخاتم المذكور . كتب الطبيب بسرعة بضع كلمات إلى الرقيب واعطاها للزنجي العجوز وكان فيها ما يأتي :

« إذا كانت الحمى قد فارقت « كيندر » قدّم له الطعام . اسحب ثلاث أونصات دماً من «واتسون» . احرص على أن لا تُدخل تلك المرأة إلى المستشفى إبريقاً من تلك الكحول اللعينة . انزع الآلة عن « جونسون » . دع « سميث » . يخرج من المستشفى لقد أصبح في حال جيدة كي يعود إلى الخدمة . ارسل لي مع الرسول الخاتم المربوط إلى سلسلة الساعة التي تركتها لك لتحدد الوقت اللازم للإعتناء بالجرحى .

« ارشيبالد سيتيغرايف ، الراند الطبيب »

.بعدما حمل هذه الرسالة الغريبة امتطى سيزار حصانه واسرع في طريقه غير مرتاح تماماً إلى تلك المسافة الطويلة التي سيقوم بها في الظلمة . ولا إلى الهواء المثلج الذي يصفر في الوادي . لكنه وصل دون عوائق إلى فندق فلاغانون حيث وجد بيتي والرقيب جالسين قرب النار مع زجاجة مشروب بينهما ، يتحدثان عن هوية هارفي بيرش المحتملة وعن الشيطان .

ـ اكرر كلامي لك يا عزيزي الرقيب ، انه من غير المنطقي الإعتقاد انه لم يكن البائع المتجول نفسه : اين كانت إذاً رائحة الكبريت ، الذنب ، المخالب ، والقدم الشمطاء :

في تلك اللحظة طرق سيزار بخجل على الباب وشرح مهمته للرقيب .

ـ مكانك ! صرخ هذا الأخير متفحصاً الزنجي العجوز من رأسه حتى قدميه . هل تعرف كلمة السر ؟

ـ انا لا افهم قصدك اجاب سيزار مرتجفاً .

ـ من ارسلك إذاً ؟

ـ السيد الطويل دو النظارات . أتى لمعالجة الملازم سنكلتون .

ـ إنه الطبيب سيتيغرايف . إنه لايتذكر ابداً كلمة السر . لو كان النقيب لاوتون مكانه لما أرسلك إلى أحد الحراس دون أن يعطيك الكلمة لئلا يعرضك للموت .

أخذ الرقيب الورقة من سيزار الخائف . وبينما كان يهتم بتنفيذ التعليمات التي أُرسلت إليه أجلست بيتي الزنجي قرب النار وقدّمت إليه كأساً :

ـ خذ أيها الرجل الشجاع ، قالت له ، خذ قطرة لتُدفئ روحك السوداء .

ـ كم مرة عليّ أن أقول لك يا بيتي ، أن أرواح الزنوج شبيهة بأرواحنا ؟ روح هذا الأسود بيضاء مثل أرواحنا نعم وحتى مثل تلك التي لواشنطن !

ـ هذا أكيد ، قال سيزار وقد استعاد بعض الثقة بنفسه .

ـ على أي حال إن روح النقيب لاوتون جميلة وطيبة أضافت بيتي .

ـ بالنسبة إلى هذا أنت على حق والنقيب يعرف كيف يجعل نفسه محبوباً من رجاله كلهم ، أضاف الرقيب بحماسة .

ـ ولماذا إذاً ، تبقى هنا مكتوفاً عندما يكون من تحبه في خطر ؟ صرخ صوت من مسافة قصيرةهيا إلى أحصنتكم ! هيا إلى سلاحكم ! انضموا في هذه اللحظة إلى نقيبكم وإلاّ فات الأوان .

هذا التدخل غير المنتظر ألقى الإرتباك بين الثلاثة . اختبأ سيزار قرب المدخنة . اندفع الرقيب إلى الأمام سيفه في يده لكن عندما شاهد هارفي بيرش تراجع بسرعة وانضم إلى الزنجي في الخلف . بيتي وحدها حافظت على هدوء اعصابها ومدّت كوباً مليئاً للبائع المتجول .

ـ بشرفي ياسيدي الشيطان انت على الرحب والسعة ! آمل في انك كنت سعيداً بثوبي وقبعتي ؟

ـ لاتتقدم أيتها الروح المظلمة ! انسحب بسلام ، صرخ الرقيب وقد أصابه الرعب .

ـ اسكت أيها الغبي ! اصعد إلى الحصان واسرع لنجدة نقيبك ، إذا لم تكن ترغب في الحاق العار بالثوب العسكري الذي ترتديه !

واختفى بسرعة حتى أن أحداً لم يستطع أن يرى أي طريق سلك .

ـ أيها الرقيب ، قالت المرأة ، كن منطقياً مرة واحدة في حياتك واستفد من الرأي الذي قُدِّم إليك كائناً من كان الذي قدمّه . تذكر انه قال لك قبل ذهابه أن تركب حصانك عند أول إشارة .

ـ نعم لكن ليس حسب أوامر الشيطان .

ـ وماذا سيحصل للنقيب؟ صرخت بيتي غاضبة. سأجهزّ عربتي، سأذهب للقائه واقول له أن ليس عليه انتظار النجدة من رجل يخاف من الأشباح . وسنرى في الغد ، إن كنت لاتزال ضمن عسكره .

بعدما ارتاح إلى تطمينات المرأة أعطى الرقيب الأوامر الضرورية إلى الاثني عشر خيالاً الذين بإمرته ، واندفعت الفرقة الصغيرة بعدما اتخذت الف الإحتياطات لحماية نفسها من حيلة الشيطان . أمّا سيزار ، فبعدما وضع الخاتم بحرص في جيب سترته صعد إلى حصانه ، اغمض عينيه ، تعلّق بعنق الحصان وبقي كأنه مصعوق حتى توقف الحيوان أمام باب الإسطبل الذي انطلق منه .

لكن في هذا الوقت وجد الضيوف المجتمعين في صالة المستر وارتون ، انهم في ظروف مُحرجة خلال غياب سيزار الذي دام ما يقارب الساعة . طالت المحادثة على رغم جهود الطبيب لإعطائها بعض الحيوية ، في أثناء الحديث عن الزواج :

ـ يا سيدتي ، قال لمس بايتون ، لقد أصبح الزواج مع تقدم القوانين مناسباً للطبيعة وللمنطق لأن قوانيننا الحكيمة تمنع زواج الرجل من أكثر من إمرأة .

هنا ، رمق الكولونيل « ويللمير » الطبيب بنظرة فيها من الاحتقار بقدر ما فيها من الكره . لاحظ لاوتون الذي كان لايزال صامتاً مُسنداً يديه إلى مقبض سيفه متفحصاً بانتباه الكولونيل ، لاحظ هذه النظرة وتولّى الكلام بدوره :

ـ لكن هناك طريقة اخرى في بعض البلاد على رغم كل القوانين . هل يستطيع الكولونيل «ويللمير» أن يقول لي ماهي عقوبة الزواج المزدوج في إنكلترا ؟

انتفض « ويللمير » شحب لونه وردّ بصوت مضطرب :

ـ الموت هذا ماتستحقه جريمة كهذه .

ـ والتشريح أضاف الطبيب . لأن المشرّعين(*) في بلادنا كانوا من الحكمة بحيث جعلوا المجرمين نافعين للمجتمع حتى بعد إنزال العقوبة بهم . والزواج المزدوج عمل شنيع . نهض « ويللمير » واخذ يتمشى في الصالة ولا شك في انه كان مضطرب الذهن . اشفق الكاهن على ارتباكه الظاهر ووجّه الحديث إلى موضوع آخر في انتظار رجوع سيزار الذي لم يتأخر .

امسك الطبيب سيتيغرايف خاتم الزواج بحزن ووجّه كلامه بهدوء إلى سارة

ـ يا انسة وارتون ، إنّ التي كان هذا الخاتم مخصصاً لها رقدت في تابوت قبل أن يحلّ يوم زفافها . كانت طيبة ومرحة . ويمكن أن يكون خاتمها بالنسبة إليك عربون السعادة التي تستحقينها .

كانت سارة شاحبة تماماً ، شكرته متأثرة . امسك الكولونيل يد خطيبته وقادها ليقفا أمام الكاهن الذي بدأ مراسم الزواج مباشرة .

فجأة فُتح الباب وشُوهد رجل قطع حضوره عمل الكاهن مباشرة . كان هذا البائع المتجول شاحباً ، مضطرباً ، ينظر حوله بعينين زائغتين ، استدار نحو

(*) المشروعون : الذين يضعون القوانين ويسنّون الشرائع .

الكولونيل وصرخ بصوت قوي :

ـ كيف يضيع الكولونيل « ويللمير » لحظات ثمينة بينما اجتازت زوجته المحيط لتنضم إليه ؟ الليالي طويلة والقمر سيطلع ، خلال بضع ساعات سيصبح في « نيويورك » .

اجفل « ويللمير » بعد هذا الكلام . القت سارة نظرة مرعوبة على وجهه وقرات في ملامحه تأكيداً رهيباً للذي سمعته . بدا ان كل مايحيط بها يدور حولها وانهارت بين ذراعي عمتها . حملتها مس بايتون وفرانس بمساعدة إيزابيل إلى خارج الغرفة وبقي الرجال وحدهم في الصالة .

كان الشاهد الوحيد على هذا المشهد الزنجي الذي كان في خدم يخدم الاتبعادتي صيفة ظن هذا الأخير الأيادي تستعمل للعمل الحسنى ، له اياد علينا .

الفصل التاسع

كان من السَهْل على البائع المتجول الهرب بعد الارتبـاك الذي تبع إغمـاء سارة . اختفى قبل أن يفكر أحد في ملاحقته . كل العيون كانت مركزة على ويللمير بصمت يُنذر بالسوء .

ـ هذا كذب ! صرخ الكولونيل . لم اعرف ابداً بتلك الواجبات المزعومة و ...

ـ هاك إذاً الشرف الإنكليزي ! قال سنكلتون بمرارة وقد منحه الإستياء القوة للتقدم إلى وسط الصالة . لكن احذر : كل فتاة اميركية لها الحق في حماية مواطنيها واية واحدة منهن ليست متروكة وتجد من ينتقم لها عندما يُهينها احد .

ـ جيد جداً ياسيد اجاب الكولونيل بترفع وهو يتقدم نحو البـاب . ضعفك يحميك ... ، لكن يمكن ان يأتي يوم ...

خرج من الصالة فإذا بالنقيب لاوتون يربت على كتفه ويشير إليه بأن يتبعه مع ابتسامة ذات مغزى لم يقابلها « ويللمير » أبداً بالاحتقار . لكنه كان سيقبل أي شيء مقابل أن لايبقى معرضاً لنظرات الاحتقار والهلع التي تنهال عليه .

دخل الضابطان إلى الإسطبل دون أن يتبادلا كلمة واحدة . أحضر النقيب حصانه ، تناول مسدسيه وقال موجهاً كلامه إلى ويللمير » .

ـ لقد كنت على حق أيها الكولونيل عندما صرحت أن جورج سنكلتون ليس في حالة جيدة للمبارزة في هذه اللحظة . لكن هاك مسدسين خدما طويلاً ولم يكونا يوماً إلاّ في أيادي رجالٍ شرفاء . هل يمكن أن يتم استعمالهما لما هو أفضل من عقاب شقي يريد خداع واحدة من أجمل زهرات بلادي ؟

ـ سأعاقبك بنفسي على عدم احترامك لي ، صرخ الكولونيل ، وهو يتناول السلاح المقّدم إليه . لتدور الدوائر على ذلك الذي أراد الأذية .

ـ آمين ! قال لاوتون . أنت حر الآن . في جيبك جواز مرور من « واشنطن » . أطلق النار أنت أولاً . إذا قُتلت انا خذ هذا الحصان وانسحب دون تردد لأنه في حالة كهذه . سيتيفرايف نفسه مستعد للمبارزة ، ولا تنتظر أية مهادنة من رجالي .

ـ هل أنت مستعد ؟ صرخ « ويللمير » وهو يشّد على أسنانه .

ـ اجلب النور ، ياتوم . اطلق النار !

أطلق « ويللمير » النار فطارت عن كتف النقيب قطعة من ثوبه على الكتف في الهواء .

ـ الآن دوري ، قال لاوتون بهدوء كبير وهو يصوّب باتجاه الكولونيل .

ـ ودوري ، زمجر صوت خلفه ونزلت ضربة قوية على ذراعه فسقط السلاح من يديه . يا لجهنم ! أهذا الفرجيني ! امسكوه يا رفاقي فهذه غنيمة لم اكن انتظرها !

مع انه فوجيء وبات اعزلَ لم يفقد لاوتون صفاء ذهنه وتعارك معهم ببطولة وهو يصرخ بكل قواه طالباً النجدة . دفع اثنين منهم فاصطدما بالحائط لكن الثالث امسكه من رجليه وتدحرج معه على الأرض . اختفى « ويللمير » ومعه خادم لاوتون ، الأول ليختبيء في الإسطبل والثاني لينُذر مَنْ في المنزل . وبما ان هذا الأخير حمل القنديل معه غرق الكُلُّ في ظلمة دامسة . فجأة تخلصّ لاوتون بعنف من قبضة خصمه وقفز دفعة واحدة على حصانه واندفع راكضاً نحو الطريق .

ـ اطلقوا النار ! تباً ، اطلقوا النار ! زمجر زعيم الجزارين . اقتلوه قبل ان يفوت الأوان !

دوّت بضع طلقات دون جدوى لأن وَقْع اقدام الحصان المبتعد تسمع بانتظام .

ـ لقد افلت الشقي منّا ! صرخ رجل العصابة وهو يضرب الأرض بعقب بندقيته في ثورة من الغضب . لنسرع في القيام بعملنا . من الآن حتى نصف ساعة ستكون الفرقة كلها في اعقابنا . هيا بسرعة إلى مواقعكم واشعلوا النار في المنزل ! لن نخرج من هنا بأيد فارغة لأن المنزل ملآن بالذهب والفضيات ما يكفي لنصبح أثرياء .

هجمت العصابة كلها على المنزل واستفاد « ويللمير » من انصرافهم ليخرج من الإسطبل وهو يقود الحصان معه . عندما اصبح فوق سرجه تردد لحظة ليفكر ايُنْذر الفرقة في «الجهات الأربع » ام يستفيد من الحرية التي حصل عليها ليذهب في طريق « نيويورك » . قرر اخيراً ان يُنفّذ الجزء الأخير ، مع انه فكر قلقاً في مقابلته ستحصل مع زوجته الحانقة التي اتت من انكلترا لتطالب بحقوقها .

كان الإضطراب والإرتباك سائدين وسط عائلة وارتون ، عندما اشعرتهم

الطلقات النارية بوجود خطر جديد . بعد لحظة اقتحم زعيم العصابة يتبعه أحد رجاله الصالة .

ـ استسلمْ ، وإلاّ أهرقت دمك ! صرخ وهو يضع فوهة بندقيته على صدر الطبيب سيتيغرايف .

ـ هدوءاً يا رفيقي ، صرخ هذا الاخير ، انت بلا شك ماهر في فَنْ إحداث الجروح أكثر منك في شفائها وسلاحك يبدو لي خطراً جداً .

ـ استسلم إذاً ، وإلاّ ...

ـ وماذا ينفع استسلامي ؟ انا ضابط غير محارب . عليك ان تناقش مسائل المفاوضات مع النقيب لاوتون واخشى انك لن تجده ليّناً ابداً في امر كهذا .

كان للجزار الوقت لتأمل المجموعة المجتمعة في الصالة وعندما راى انه لايخشى المقاومة رمى بندقيته ارضاً واهتم مع رفيقه بتكديس الفضيات التي وقعت بين يديه في كيس واحد .

كان المشهد داخل البيت فريداً . السيدات مجتمعات حول سارة المغشي عليها . مستر وارتون في انصعاق تام يستمع دون ان يفهم إلى المواساة التي يوجهها إليه الكاهن ، بينما كان الطبيب يهتم بسنكلتون المرهق . امّا الخَدَم فقد هربوا إلى الجبل .

خلال هذا الوقت كان الخيالة قد ساروا بإمرة الرقيب الخائف واعطت بيتي فلاغانون الأمر بتحضير عربتها لمرافقتهم . مما ادى إلى تاخير احتج عليه الرقيب الذي كان يجد صعوبة في تنظيم فرقته حسب الترتيب الملائم :

ـ بما اننا لانعرف إذا ما كنّا سنُهاجم فجاة سيمشي خمسة منكم امامنا والباقون في الخلف ليغطوا انسحابنا إذا كان ذلك ضرورياً . آه ! سيدة فلاغانون ليست مسالة سهلة ان يعطي رجل لايملك التعليمات اوامراً في لحظة كهذه وكنت

اتمنى من كل قلبي ان يكون الضباط هنا !

ـ هراء ! قالت المراة وقد جلست بارتياح في عربتها ، اقسم انه لا يوجد عدو واحد هنا ! إسرع قليلاً إذاً حتى اتمكن من جعل بغلي يُسرع .

ـ لم أُحارب اجاب الرقيب بترفع ، دون ان اتعلم ان على الجندي واجب الحفاظ على امتعته دائماً . وهذا مالا يتأخر عنه واشنطن ابداً لست في حاجة إلى تلقي دروس في الخدمة العسكرية من إمراةمهيا يارفاقي إلى الأمام ! إمشوا كما قلت لكم .

ـ نعم إمشوا لايهم كيف ، صرخت بيتي وقد نفذ صبرها . أنا متأكدة أن الأسود قد وصل والنقيب لاوتون سيوبخكم على بطئكم .

ـ هل انت متأكدة أن من حمل تلك الرسالة هو زنجي حقيقي ؟ سأل الرقيب بعدما أعطى إشارة الإنطلاق .

ـ قلت لك انني لست متأكدة من شيء . لكن لماذا لا يلكز خيالتك احصنتهم للإنطلاق ؟ إن بغلي ليس معتاداً على السير الهوينى .

ـ هدوءاً ولنكن حذرين ياسيدة فلاغانون اجاب الرقيب . إذا صادفنا شبحا سيهاجمنا دون شك فجأة وسأفقد سمعتي الحسنة ايتها السيدة .

ـ حقاً ! والنقيب اليست له سُمعة ايضاً وحتى حياةً يفقدها ؟ على اي حال لا استطيع الإمساك ببغلي سيثور و ...

ـ إسمعي ! ما هذا ؟ صرخ الرقيب مصغياً لطلقة المسدس التي اطلقها « ويللمير » . اقسم ان هذا مسدس لفرقتنا . انتباه ! ليتقدم الباقون إلى الامام وانطلقوا !

سار على راس رجاله وبعد قليل سمعوا صوت انطلاق بندقية . حينئذ سُمع على الطريق ركض حصان مندفع كالسيل . اندفع الرقيب بنفسه ليرى الفارس القادم وصرخ بصوت قوي :

ـ مكانك ! مَنْ هناك ؟

ـ آه ! هذا انت ايها الرقيب ! اجاب صوت لاوتون دائماً في الموقع المطلوب ! اين المفرزة ؟

ـ على مسافة خطوتين ايها النقيب ، على استعداد للحاق بك إلى حيث تريد ، صرخ الرقيب وقد تحرر من ثِقْل المسؤولية واستعاد مرة واحدة كل شجاعته .

ـ هذا جيد ، اجاب النقيب .

وجّه بضع كلمات إلى الخيالة . وانطلقوا جميعاً مثل الريح في اتجاه المنزل الكبير تاركين إلى جانب الطريق المراة وعربتها .

ـ اف ! تنهدت بيتي ، من الواضح جداً الآن ان النقيب يرافقهم . هاهم يركضون بدلاً من السير كأنهم في جنازة . سأربط عربتي إلى هذا الدغل والحق بهم سيراً لأرى ما حدث لأنه ليس من العدل ان أُعَرض هذا البغل المسكين لضربة سيئة مثلاً .

عندما وصل النقيب إلى المنزل الكبير ، استوقفهم واخذ ترتيبات الهجوم . نزل عن حصانه مع ثمانية من رجاله وامر الرقيب بالبقاء حيث هو لحراسة الأحصنة وتوقيف أو طعن اي كائن يخرج من المنزل . في تلك اللحظة اندلعت السنة النار من خلال بعض النوافذ وقسم من السقف وهي تنشر ضوءاً قوياً وسط الظلمات .

ـ إلى الأمام ! صرخ لاوتون وقفز نحو المنزل على راس رجاله . اقتحم الصالة سيفه في يده وبضربة واحدة قتل مرافق زعيم العصابة . لكن هذا الأخير تمكن من القفز عبر النافذة والإنضمام إلى رفاقه الذين سقط أحدهم تحت ضربات الخيالة فيما أطلق الآخرون ساقهم للريح .

جذبت صرخات النساء الخائفات النقيب إلى الحجرة حيث حملق سارة المغشي عليها . عندما سمعت صوت الطلقات النارية خرجت مس بايتون وإيزابيل

لتريا ماذا يحدث ، وتركتا فرانس إلى جانب سارة التي كانت تستعيد رشدها رويداً رويداً واخاف كلامها المتقطع اختها الشابة .

في تلك اللحظة سُمعت ضجة مُرعبة وانهار السقف واضاءت الشعلات التي تضاعفت حدتها جوار البيت . ركضت فرانس إلى إحدى النوافذ ورات على العشب مجموعة مرتبكة ، ضمنها عمتها وإيزابيل اللتين كانتا تلوحان يائستين بأيديهما . عندها فهمت الخطر الكبير وأطلقت صرخة عظيمة واندفعت دون تفكير في الممشى .

سَدَّ طريقها عمود من الدخان الكثيف الخانق . ترنحت وكادت تسقط عندما امسكها رجل بين ذراعيه وحملها وسط لهب من النار . ما أن استعادت حواسها حتى عرفت أنه النقيب لاوتون وصرخت بين اليقظة والغيبوبة :

ـ سارة ! سارة ! انقذها وليحمك الرب !

خانتها قواها واغمي عليها . وضعها النقيب بين يدي كاتي وركض مجدداً نحو المنزل الذي اصبح اتوناً للنار والدخان فتردد لاوتون لحظة قبل أن يندفع إلى الداخل ، مقتحماً ذلك الفرن . وبعد محاولتين وجد الباب ، فدخل إلى الممشى المشحون بدخان خانق . اصطدم هناك برجل يخرج منه حاملاً سارة المغشي عليها بين ذراعيه . ما كاد يصل إلى الباحة حتى اندلعت النيران من كل فتحات المنزل . بفضل نور النار الرهيبة عرف النقيب أن منقذ سارة له ملامح البانع المتجول .

ـ هارفي بيرش ! صرخ قائلاً . بحقّ السماء ، انت تتبعني كالظلّ !

ـ ايها النقيب ، اجابه بيرش وهو ينهار ارضاً مُرهقاً من التعب لاازال تحت سيطرتك لانني لم اعد املك القوة للدفاع عن نفسي .

ـ إن قضية اميركا عزيزة عليّ بقدر حياتي . لكن لايمكن أن تستدعي مني

التضحية بالشرف وبالعرفان بالجميل . اهرب بسرعة قبل ان يراك رجالي .

ـ ليحفظك الرب ويمنحك النصر ! صرخ هارفي .

ـ انتظر لحظة ايضاً ! كلمة واحدة ! قال لاوتون . هل انت حقاً كما يبـدو عليك ؟ هل انت حقاً ...

ـ جاسوس للجيش الملكي ، أجاب البائع المتجول وهو يدير راسه .

ـ اسرع بالفرار إذاً ايها الشقي ! صرخ النقيب وهو يدفعه . اختفى بيرش وسط الظلام واخذ لاوتون سارة المغشي عليها بين يديه حملها كانها طفل نائم ووضعها وسط العائلة لتعتني بها .

الفصل العاشر

لم يبقَ من بيت وارتون كله إلاّ جدران سوداء من الدخان شبه مطمورة تحت الخراب . على العشب ، كانت مجموعة محتارة تحيط بسارة التي احزنتهم بكلامها المتقطع وتعابير وجهها الساهمة . فحصها سيتيغرايف حسب طلب عمتها لكنه لم يترك لهم إلاّ املاً ضئيلاً باستعادتها صفاء ذهنها .

كان يجب أن يجدوا لعائلة وارتون ملجأ موقتاً ، فاتخذ النقيب لاوتون الترتيبات الضرورية لنقلهم كلهم إلى « الجهات الأربع » اخرج سيزار بحزن العربة الثقيلة فجلست فيها مس بايتون مع ابنتي اخيها وإيزابيل ، وفي عربة مسز فلاغانون المزدحمة بالفراش والاغطية جلس الملازم سنكلتون ومستر وارتون . وتمركزت مفرزة من الخيالة بإمرة الرقيب على مسافة قصيرة من

لخراب المدخن لتعترض طريق الزنوج الذين يمكن ان تغريهم السرقة . من بقي من الجنود كُلِّف بمواكبة العربتين في الطريق نحو فندق فلاغانون .

بينما كان النقيب يتحضّر للمسير والإنضمام إلى القافلة الحزينة ، راى كاتي هاينز تخرج مخطوفة الأنفاس من الخراب تنوء تحت رزمة كبيرة من الاشياء التي التقطتها وكانت تصرخ بكل قواها :

ـ لا تتركوني هنا وحيدة كي يسرقوني وربما قتلوني ! ما كان هارفي بيرش ليعاملني هكذا ابداً عندما كنت اسكن معه .

ـ لقد كنت تعيشين في بيت مستر بيرش إذاً ؟

ـ طبعاً، لثماني سنوات او تسع . آه ! كان إنساناً غريباً جداً . لكن دلني على طريقة انضم بواسطتها إلى مس بايتون وساخبرك كل ما يتعلق بعائلة بيرش .

ـ اجل ! قال لاوتون ، لاشيء اكثر سهولة من هذا . امسك كاتي من إبطها ورفعها بخفة بقبضة قوية ووضعها بأمان على صهوة حصانه .

ـ اتركني انزل ! صرخت كاتي محاولة ان تتحرر من اليد الحديد التي تمسكها . هل تضع إمراة بهذه الطريقة على الحصان ؟ احتاج على الأقل إلى اريكة .

ـ اهدئي ياسيدتي العزيزة ! ليس من الحكمة ان تغضبي هكذا . حصاني يثور بسرعة وليس معتاداً على نقل حمولة مزدوجة .

ـ اتركني لانزل ! كررت كاتي خائفة . اكاد اسقط لا استطيع الإمساك بشيء لأن يدي الاثنتين منشغلتان ادار لاوتون راسه فراى ان المراة لم تترك رزمتها عندما وضعها على ظهر الحصان .

ـ ارى انك احضرت امتعة ، قال لها ، لكن هذا الحزام الجلدي طويل ما يكفي ليُحيط خصرك الرشيق وخصري ايضاً .

انشرح خاطر كاتي بهذه المجاملة وتركت النقيب يحاوطها بالحزام ولكز حصانه ليسرع . بعد قليل وصلا إلى حيث عربة المراة التي كانت تمشي برفق نظراً إلى جروح الملازم سنكلتون .

ـ هكذا إذاً ، عاود النقيب يقول ، لقد عشت في المنزل نفسه مع هارفي بيرش ؟

ـ خلال مايُقارب تسع سنين .

وصلت هذه الكلمات إلى مسامع فلاغانون التي تدخلت في الحديث :

ـ في النتيجة ايتها المراة الطيبة ، انت على علم إذا كان على علاقة بالشيطان كما يدعّي الرقيب .

ـ إنها شائعة شنيعة ، صرخت كاتي بحرارة . لا يوجد بائع متجول أشرف من هارفي .

ـ صحيح ، فقد انذرنا هذه الليلة وهذا لحسن حظ نقيبنا .

ـ كيف ذلك يا بيتي ! تعجب لاوتون ، هل بيرش من انذركم ؟

ـ هو نفسه يا جوهرتي .

بحركة عفوية غرز النقيب مهمازه في بطن مطيته فاندفعت إلى الامام بسرعة مزعجة او على الأقل هذا ما شعرت به كاتي الخائفة . ظلّ مستغرقاً في افكاره ولم يتكلم بعدها حتى وصلوا إلى فندق فلاغانون . وهناك حَضَّرَ بعض الغرف على افضل ما يمكنه لاستقبال سكان المنزل التعساء . ونُقل إليها الأثاث الذي تمكنوا من الحصول عليه . اشتعلت نار في كل المواقد فوجدت النساء عندما وصلن مسكناً مناسباً تقريباً .

كان القمر قد ارتفع إذاً ونوره الشاحب يدخل متموجاً من النافذة ذات الزجاج المكسور . وإيزابيل يُعاونها النقيب تحاول ستر الشّق بتعليق غطاء عليه . بينما هما منشغلان رأت عين النقيب الثاقبة طرف بندقية يلمع في البعيد مُوَجهاً في

اتجاههم . سريعاً كالبرق رمى بنفسه إلى الخارج وقفز على السرج ليفاجيء المُهاجم لكن طلقة كانت قد دوّت ، وبينما كان اللص يختفي بين الصخور انهارت إيزابيل في الحجرة وقد تلقت في صدرها الرصاصة التي كانت موجهة ضد لاوتون .

رفعتها مس بايتون وفرانس المرتعدتان ومددتاها على سرير . تمتمت الفتاة بصوت خافت :

ـ هل جورج بعيد من هنا ؟ نادوه لأراه للمرة الأخيرة . عاد لاوتون في تلك اللحظة ولم يستطع إخفاء تأثره عندما رأى جرح مس سنكلتون الخطير . انحنى فوقها وأخذ يدها برفق وتمتم :

ـ إيزابيل أعلم أنك تملكين شجاعة تفوق قوة كل بنات جنسك .

ـ لست خائفة من الموت يا لاوتون . أشكرك لأنك لم تشكّ في شجاعتي . لقد شعرت مباشرة أن الطلقة قاتلة .

ـ عندما أرى أن الحرب قد اختارت ضحية مثلك ترعبني مهنتي !

ـ انا سعيدة بالتفكير في انني قمت بكل ما أستطيعه من أجل بلادي . لكن اذهب لإحضار اخي يا لاوتون ارجوك !

عندما وصل النقيب أصّرت إيزابيل كي يبقى هو وفرانس بمفردهما إلى جانبها . وجهّت إلى اخيها بضع كلمات وداع ، علامة حنان وشجاعة ثم أدارت رأسها نحو فرانس الباكية :

ـ مس وارتون ، قالت لها بصوت يزداد خفوتاً، إذا كان هناك قلب جدير بأن يحبه دانوودي فهو قلبك . رفعت فرانس يدها وهي تبكي كأنها تستوقفها لكن رجفة سرت في جسد إيزابيل فارتخت أصابعها المتشنجة وزفرت أنفاسها .

في صباح اليوم التالي حمل رسول إلى النقيب هذه الرقعة من الرائد دانوودي :

« لقد أمر واشنطن بأن تُنقل عائلة وارتون كلها خلف الجبال . ستكون لها الحرية الكاملة للإتصال بالنقيب وارتون الذي لاينتظر سوى وصول اهله كي يخضع للمحاكمة لأنهم يجب أن يكونوا شهوداً .

أعرف انك ستخبرهم بهذا الأمر باللباقة المناسبة . ما أن يرحل « آل وارتون » حتى تترك « الجهات الأربع » لتنضم إلى جيشك . مفرزة جديدة من الجيوش الإنكليزية تصعد « الهودسون » وهناك لقاء محتمل مع العدو . الكولونيل سنكلتون مُكلّف بملاحقة دعوى هنري وارتون المسكين . لقد تلقينا أوامر جديدة بشنق هارفي بيرش ما أن نتمكن من القبض عليه لكنه لم يَصدر عن قائد الجيش . وداعاً لتواكب مفرزة صغيرة السيدات في رحلتهن وكن على صهوة جوادك أقرب ما يمكن » .

دُفنت المسكينة إيزابيل ببساطة ، وسط تأثر كل الذين عرفوها . ما أن انتهت المراسيم الجنائزية حتى صعد مستر وارتون إلى العربة مع اخته وابنتيه ورافقتهم كوكبة من الخيالة نحو الجبال ، بينما من جهة مقابلة عاد الكاهن والجرحى الإنكليز إلى الضفة . سار لاوتون على راس رجاله مُلقياً نظرة كئيبة على قبر إيزابيل وتاركاً بأسف فندق فلاغانون الذي دوّت فيه سابقاً فرحة جنوده الصاخبة .

بعد يوم طويل من السفر ترك سنكلتون عائلة وارتون ليعود إلى منزل والده ، حيث يجب أن يُنهي نقاهته . توجهت عربة وارتون التي يقودها سيزار نحو المكان الذي ينتظرهم فيه الأسير والذي سيسمح له وصول عائلته بالمثول أمام المجلس العسكري .

بينما كانت الخيول المرهقة بسبب الطريق الطويلة بين المسالك الجبلية تتسلق منحدراً بصعوبة ، نزلت فرانس وكاتي ارضاً لتخففا الحمولة . كانت فرانس

مضطربة بسبب المشاعر الحادة التي تتوالى على قلبها المحزون : الأسف على موت إيزابيل ، الألم الذي تُسبِّبُهُ لها حالة اختها المحزنة ، الحب الذي لايُقهر لدانوودي ، الخشية الممزوجة بالأمل على مصير اخيها ... هكذا وصلت دون أن تنتبه تقريباً إلى قمة الجبل وتوقفت لحظة لتتأمل المنظر الممتد امام عينيها .

عند أقدامهم ينبسط وادٍ عميق وفي الجهة الأخرى يرتفع جبل تغرق جوانبه المتعرجة والبَرية في الظلمة بينما يؤلف آخر شعاع من الشمس مايشبه هالة النصر على القمة بفضل ذلك النور الغارب فوجئت فرانس إذ مَيزَّت بين الأشجار والصخور كوخاً مبنياً بخراقة ، تتوجه نحوه قامة إنسان ذات شكل مميز وتشويه لم تفهم سببه . فجأة بدا لها انها ترى شبهاً ملحوظاً بينه وبين هارفي بيرش حاملاً رزمته .

كانت تنظر إليه بدهشة والشمس تختفي خلف الجبل فانسدل على المشهد كله ستارٌ من الظلمة .

في تلك اللحظة سُمع ضجيج الخيالة الذين يقتربون وصوت بوق . وقبل أن تتمكن من الخروج عن اضطرابها اندفع دانوودي امام رجاله ، قفز ارضاً وتقدم نحوها .

كان في الطريق ليشهد في دعوى هنري التي ستجري في اليوم التالي وبَدَّلَ طريقه ليميل ناحية عائلة وارتون ويتأكد من أن رحلتهم كانت جيدة . تصرفاته وإن كانت مملوءة بالحنان والتفاني دلت على شيء من الإرتباك . فرانس لم تكن اقل خجلاً ولم تتبادل معه سوى كلمات نادرة لكن وصول العربة بعد قليل حرّر هما من هذا الموقف المُحرج وتوجه الجميع نحو المزرعة التي سُجن فيها هنري .

كان أهل النقيب ، وارتون ، على ثقة ببرائته إلى درجة انهم لم يَعووا جيداً

يعووا : اي وَعَى . بمعنى فهم وإنتبه .

الاخطار التي تتهدده . لكن دانوودي صديقه وهو كانا على معرفة تامة بالخطر واستيقظا في اليوم التالي بقلب مُثقل بالهموم .

حانت اخيراً اللحظة التي يجب ان يمثل فيها هنري امام قضاته . كانوا ثلاثة ، بينهم وجه الكولونيل سنكلتون الجميل المفجوع الذي يتميز بتعابير المودة . بإشارة من رئيس المحكمة ادخل الخيالة الأسير . كان من السهل معرفة هويته ثم اخذ الكولونيل الأوراق الموضوعة أمامه :

ـ انت متهم ، قال له ، بما انك ضابط عند العدو بالمرور متنكراً يوم ٢٩ تشرين الاول / او كتوبر على حواجز الجيش الاميركي في « السهول ـ البيضاء » ، مما يجعلك مشبوهاً بالخيانة . ويُخضعك للعقوبات المنصوص عليها ضد الجواسيس .

ـ لا أُنكر ما فعلت ، اجاب هنري بكبرياء ، لكنني لم أُخُن احداً . لم اتنكر إلاّ حرصاً من الوقوع اسيراً في طريقي لزيارة اهلي .

ـ هل يمكنك ان تقدم إثباتاً ما بأن هذه كانت نيتك الحقيقية ؟

ـ دون شك والدي ، اختاي ، الرائد دانوودي يستطيعون الشهادة على ذلك

ـ احضروا مستر وارتون .

تقدم العجوز مرتجفاً من التأثر واقسم اليمين حسب القوانين المتبعة .

ـ هل انت والد الأسير ؟

ـ إنه ابني الوحيد .

ـ لماذا حضر إلى بيتك في ٢٩ تشرين الاول / اكتوبر الماضي ؟

ـ كما قال لك ليراني واختيه .

ـ لك فتاتان قال الكولونيل متأثراً .

ـ هل كان متنكراً ؟ سأل قاض آخر .

ـ لم ... يكن يرتدي زيّه العسكري .

ـ هل تعرف كيف حصل على جواز المرور ذاك ؟ سأل القاضي الرابع وهو يدله على التصريح بالمرور الذي أعطاه هنري للرائد دانوودي .

ـ كلا ، بشرفي .

ـ هل لديك شاهد آخر نسمعه يا نقيب وارتون ؟إفادة أبيك لا يمكن ان تكون نافعة لك . لقد تم توقيفك في ظروف تُهدد حياتك . عليك ان تُثبت براءتك فكُر ملياً .

ارتعد هنري رغم انفه وهو ينظر الى وجوه قضاته الباردة والجامدة ، والقى نظرة مهمومة في اتجاه دانوودي الذي طلب عندها ان يدلي بافادته كشاهد طلبوا منه إداء القَسَم واستمعوا إلى إفادته . لكنه كان يعرف القليل جداً . وهذا القليل كان في غير مصلحة هنري اكثر مما هو لفائدته .

ـ هل تستطيع ان تُصرح بعد قَسَم اليمين ان الاسير لم يكن عنده خطة اخرى غير التي اعترف بها ؟

ـ الله وحده يعرف خبايا الصدور لكنني اصرح حسب قَسَمي بأنني اعرف النقيب وارتون منذ طفولته وبأنه لا يمكن ان يرتكب عملاً دنيئاً كهذا .

ـ يا رائد دانوودي ، اجاب القاضي نفسه ، واجبك كان شاقاً . لقد قمت به كما يليق برجل شريف . علينا ايضاً ان نقـوم نحن بواجبنا .

بدات ثقة هنري بنفسه تتزعزع . لكن املاً غير واضح بأن مظهر فرانس المؤثر يمكن ان يسعفه جعله ينظر إلى اخته الشابة . فنهضت واقتربت من القضاة متوردة الخدين وهي تُزيح بيدها خصلات شعرها الطويل . نـظر إليها رئيس المحكمة بتأثر كما لو انها تُذَكره بذكريات عزيزة عليه وقال لها بصوت فيه مودة :

ـ إليك إذاً ، باح اخوك بخطته لزيارة اهله ؟

ـ كلا ، اجابت فرانس بخجل ، لم يَقُل لي شيئاً . لم نكن ننتظره عندما وصل

ـ الا يأتي ابداً لزيارتكم ؟ الا يُعلن ابداً زياراته ؟

ـ أوه ! بلى . هذه هي الزيارة الرابعة منذ بدء الحرب .

ـ تحت اي تنكر جاء في المرات السابقة ؟

ـ لم يكن متنكراً لأن الجيش الملكي كان يسيطر على البلاد .

ـ هل هي المرة الأولى التي يجيء فيها دون الزي الخاص بجيشه ؟ سأل الرئيس وقد بدا عليه الإضطراب.

ـ نعم بالطبع ، أجابت الطفلة المسكينة باستعجال .

إذا كانت تلك غلطة فإنها تحدث للمرة الأولى .

ـ لكن هل كتبت له رسالة وأصررت على مجيئه ؟

ـ أوه! كلا. نحن لا نجرؤ على الإتصال بالجيش الملكي خشية تعريض والدي لخطر ما .

ـ وخلال مكوثه في المنزل هل خرج مثلاً ؟ هل تلقى زيارة ما ؟

ـ لم يأت أحد باستثناء جارنا ، البائع المتجول بيرش .

ـ من هذا ؟ صرخ الكولونيل مرتجفاً .

افلت أنين من دانوودي : « لقد انتهى أمره » ! صرخ قائلاً . واسرع خارجاً من القاعة .

ـ هارفي بيرش ، رددت فرانس مرتعشة .

نظر القُضاة الواحد إلى الآخر نظرات ذات مغزى .

ـ سادتي ، قال هنري متقدماً مجدداً ، اعرف ان هارفي بيرش متهم بتأييده للجانب الملكي واعترف انه هو من قَدَم لي زياً تنكرياً للمرور على حواجزكم . لكنني

أصرح ، قسماً بشرفي ، ان نياتي كانت سليمة .

ـ ايها النقيب وارتون ، اجاب الرئيس ، إن اياً من اعدائنا ليس اكثر خطراً على بلادنا من هذا البائع المتجول الذي حُوكم على اساس انه جاسوس . اخشى ان تكون تلك العلاقة معه قاضية عليك .

ـ انا السبب ! صرخت فرانس وهي تضم يديها برعب .

ـ اصطحبوا اسيركم ، قال احد القُضاة للجنود الذين يحرسون هنري . هل ننصرف الآن يا كولونيل سنكلتون ؟

عند سماع هذا الإسم ارتمت فرانس عند قدمي الكولونيل ، امسكت يديه بللتهما بدموعها ، واستحلفت سنكلتون باسم ولَده الجريح الذي اعتنت به وابنته الميتة التي شاركت في دفنها ان يتدخل لمصلحة أخيها . بدا الكولونيل وقد غلب عليه التأثر كأنه سيُذعن لكنه تمالك نفسه على رغم توسلات فرانس ونحيبها . امسك بيدها برقة واعادها شبه غائبة عن الوعي إلى عمتها لتعتني بها . ثم انضم إلى زملائه الذين اتخذوا قرارهم المتعلق بهنري .نَصُّ القرار على أن النقيب وارتون الذي اوقف متنكراً بعدما اجتاز خطوط الجيش الأميركي كأنه جاسوس ، سيحْكم عليه بالموت وفق احكام الحرب . في النتيجة ، تحكم عليه المحكمة بالشنق صباح اليوم التالي الساعة التاسعة .

. هذه الفترة القصيرة بدت كافية للحصول على موافقة قائد الجيش لأن واشنطن قد نقل مركز قيادته إلى الضفة الأخرى لنهر الهودسون .

ـ سأذهب بنفسي لطلب الاسترحام لهذا الضابط المسكين ، قال الكولونيل وهو يُوَقع الورقة . إذا كان لخدمات جُندي قديم ولجروح ابني اعتبار عند واشنطن أكون قد انقذت هذا الشاب !

الفصل الحادي عشر

بعدما صَدَرت توصية المجلس الحربي امضى هنري بضع ساعات وسط عائلته المستغرقة في يأس عميق كانت مس بايتون وحدها تحافظ على وميض من الأمل بتسامح واشنطن .

امّا الرائد دانوودي فكان يروح ويجيء في الخارج مضطرباً في انتظار عودة الرسول الذي بعثه إلى مركز القيادة لتوقيع أمر التنفيذ . أخيراً راى في البعيد الرسول الذي عاد مهرولاً يلّوح بورقة ويصرخ :

ـ أخبار، طيبة !

لم يُكلف دانوودي نفسه عناء فتح البرقية بل اندفع إلى حجرة الأسير وقال

ـ ها هي الأخبار يا فرانس ، ها هي ياعزيزي هنري !

مزق غلاف الرسالة باستعجال لكنه تلقى صدمة اكثر وَقْعاً ومكان الفرح الذي لمع في عينيه حلّت فاجعة عميقة .

لم يكن المغلف يحتوي إلاّ على امر التنفيذ وفي اسفله كُتبت تلك الكلمات : «تمت الموافقة عليه ـ جورج واشنطن » .

تبع تلك اللحظة القاسية بضع لحظات من الإرتباك واليأس . تمالك هنري نفسه اولاً ووجّه تشيجعاً رقيقاً إلى اهله . اوكل العناية بعائلته إلى صديقه دانوودي وعبّر عن رغبته في زواجه من اخته فرانس قبل موته . لكن هذه الأخيرة صرخت دامعة العينين :

ـ رفقاً بي يا هنري ! انت تُقطع نياط قلبي . من اجل العالم اجمع لا استطيع في هذه اللحظة القيام بما تطلبه . سأوبخ نفسي طوال حياتي .

اراحت يدها لحظة على يد خطيبها . فكّر هنري لحظة ثم اضاف :

ـ عديني إذاً : ما ان تتمكني من التفكير بي دون مرارة كبيرة حتى تربطي حياتك بحياة صديقي . سأرضى بوعد كهذا .

ـ اعدك بذلك ، اجابت الشابة باكية .

ـ هذا جيد جداً والآن تفضلوا جميعاً واتركوني لحظة مع دانوودي على انفراد . ما زال عندى بعض التوصيات الحزينة لأوصيه بها واريد ان أُجنّبكم الاستماع إليها .

ـ سأذهب بنفسي للتوسل عند قدمي واشنطن. لم يفت الأوان بعد، قالت مس بايتون وهي تنهض .

ـ ولماذا لانتوجه عند مستر هاربر ؟ قالت فرانس كأن الفكرة هبطت عليها فجأة .

ـ هاربر ! كَرّر دانوودي وهو يستدير بسرعة البرق . ماذا ! هل تعرفون مستر هاربر ؟

جورج واشنطون

اخبرته فرانس بإختصار عن مكوث مستر هاربر في منزلهم والوعد الذي قطعه لها عند رحيله .

ـ هل يتعلق الأمر بوعدٍ قاطع ؟ سأل الرائد بإصرار . والتقط الورقة المرمية على الطاولة بإهمال وفحص التوقيع بعناية .

ـ وعد ذو مهابة اعطاه عن معرفة بالأخطار التي يمكن أن تهدد هنري .

ـ والحال هذه ، صرخ الرائد وهو يضم خطيبته بين ذراعيه ، سأذهب وهنري سينجو .

اندفع خارج الحجرة دون أن يضيف اي شرحٍ تاركاً العائلة غارقة في دهشة لامحدودة . وبعد قليل سُمع وقع حوافر حصانه مهرولاً وقد اطلق له العنان .

مع أن هنري بقي فريسة لهموم الموت المريرة عاد إلى قلب فرانس املٌ لايُقهر . اقتربت من النافذة وقد استراحت من الهَمّ الثقيل ونظرت إلى الخارج .

امامها كان يمتد سفح الجبل الوعر الذي رات في قمته الليلة السابقة الكوخ الغامض . على المنحدر الصخري ، خلف صخرة شدّت انتباهها بشكلها الغريب ، بانت قامة واختفت مراراً كأن هناك من يرصد بإنتباه حركات الجيوش في السهل . على رغم المسافة التي تفصلها عنه بدا لفرانس انها ترى هارفي بيرش او على الأقل تخيلت ذلك . أخذت تفكر في هذا الظهور الغريب متسائلة عن نوع العلاقة التي ربطت مصير عائلتها بهذا الرجل الغامض .

عندئذٍ فُتح الباب وظهر دانوودي مجدداً ، وعلى وجهه آثار تعب عظيم . ارتمى على كرسّي بينما صرخت فرانس شاحبة :

ـ الم تنجح ؟ الم تُقابل مستر هاربر ؟

ـ كلا . بينما كنت اجتاز الهودسون في الزورق كان هو نفسه يقطع النهر في اتّجاه هذه الناحية . فقدت اثره في الجبال فعُدت إلى هنا كي لا اتركك فريسة

للقلق . لكنني سأعود هذه الليلة إلى المخيم وسأحصل على مهلة .

ـ لكن هل رأيت واشنطن ؟ سألت مس بايتون نظر اليها الرائد ساهماً . كررت سؤالها فأجابها :

ـ لقد ترك قائد الجيش مركز القيادة . لكن يا فرانس ، اعيدي عليّ القول جيداً هل وَعَد مستر هاربر حقاً بحماية هنري ؟

كررت الفتاة مع تفاصيل اكثر القصة التي اخبرته إياها واصرّت على المودة التي ابداها لها المسافر . عند سماعه ما قالته عن المودة التي وعدها بها هاربر صرخ دانوودي :

ـ لقد نجونا !

قاطعه حينئذٍ سيزار الذي دخل مُعلناً ان كاهناً يطلب الدخول إلى جانب الأسير . الحقيقة ان النقيب رغب في ان يُمضي ساعاته الأخيرة برفقة رجل دين للتأسي . أرسل سيزار لإحضار احدهم من القرية الأقرب فإصطحب الزنجي كاهناً كان يعبر في الجوار .

بإشارة من الرائد ادخل الخفير رجل الدين إلى غرفة الأسير . كان رجلاً طويل القامة شديد النحول وعلامات الصرامة وحتى التعصب بادية على وجهه ولا تعمل لمصلحته .

حاجبان كثيفان سوداوان يُظللان عينيه اللتين تختفيان خلف نظارتين خضراوين واسعتين . تتهدل على عنقه خصلات شعرٍ رمادية ، وتُخفي وجنتيه جُزئياً . فوق هذه التسريحة المهملة قبعة واسعة . مظهره الخارجي لا يوحي أبداً بالرقة ولا بالإحسان. واللهجة الحادة التي تخلو تقريباً من الاحترام التي اجاب بها على كلام الترحاب الذي وجهتّه إليه مس بايتون ، انتهت بازعاج كل من حضر ذلك المشهد . لكنهم انصرفوا جميعاً تاركين ذلك الكاهن الغريب بمفرده مع هنري وسيزار الذي أحضر وجبة للزائر التقّي .

ـ اعترف ، قال هنري بنوع من الجفاء بأنني عندما طلبت زيارة الكاهن لي كنت اتوقع ان اجد فيه الطيبة التي نتوقعها من رجل دين . لكنني لا اشعر بنفسي ابداً مستعداً لمشاركة رجل غير متسامح في الصلوات .

ـ هناك نساء يمكن أن توقعهم لهجة كهذه في الإضطراب اجاب صوت مألوف جداً . إنما كان هذا مقصوداً .

ـ من يتكلم هكذا ؟ صرخ النقيب مصعوقاً .

ـ انا يا نقيب وارتون، اجاب هارفي بيرش وهو ينزع نظارتيه ويُبدي عينيه الثاقبتين اللتين تلمعان تحت حاجبين مزيفين .

ـ لتتبارك السماء ! هارفي !

ـ أصمت ! لاتلفظ هذا الإسـم وسط الجيش الاميركي .

ستكون سبباً لشنقي الف مرة . لكنني فضلت معاناة هذا الخطر على ان اترك رجلاً بريئاً يموت كانه كلب .

ـ لكن ماذا تستطيع ان تفعل لي في ظروف كهذه ؟

ـ إن أحداً في العالم لا يستطيع إنقاذك سواي . لقد صادفت سيزار وتشاورت معه على الخطة الوحيدة التي يمكن ان تنقذك من هنا قبل ان تُساق إلى المشنقة .

رضي هنري أن يرضخ لإلحاح البائع المتجول الذي بعدمـا استعاد لهجتـه المتعجرفة فتح الباب قليلاً ليطلب من الخفير عدم السماح لأحد بـالدخول إلى جانب الأسير بينما يقومان بالصلوات .

بعدما احتاط لهذا الأمر أقفل الباب بعناية وعاد إلى النقيب واهتم بمهـارة لامثيل لها بإجراء عمليـة تغيير كاملة فيه

من جيوب ثوبه الفضفاض سحب قناعاً اسود ثبتّه على وجه الشاب وباروكة من الصوف وصفها بعناية على رغم عدم الرضى الذي بدا على سيزار :

ـ أنا لا أصدق أنه يشبهني، هَمْهَمَ بصوت منخفض، يبدو كأنه خروف أسود وتلك الشفاه ! لم ار في حياتي مثيلاً لها .

ـ حقاً أيها النقيب ، قال هارفي ، أنت جدير بـالظهور في حفلة تنكـرية . في الجيش الاميركي كله رجل واحد يستطيع التعرف إليك لحسن الحظ ليس هنا في هذه اللحظة .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ ذلك الذي قبض عليك . يستطيـع أن يرى جلدك الأبيض ولو تحت جلد حصان . لكن أسرعا بإستبدال الثياب . وأنت يا سيزار ضـع هذه البـاروكة البيضاء أجعل ظهرك للباب عندما نفتحه والمهم أكثر ان لا تلفظ كلمة واحدة وإلاّ قضيت علينا جميعاً .

ـ يظن هنري ان الرجل الأسود لا يلفظ الكلام جيـداً مثل الآخـرين زمجر الزنجي معبراً عن عدم الرضى .

طلب البائع المتجول من النقيب تقليد مشية سيزار المتثاقلة قدر الإمكـان ثم فتح الباب ونادى الخفير طالباً أن يحضروا له تواً « اللحظات الأخيرة للمجرم او أراء عن الأبدية ، للذين سيموتون موتاً عنيفاً » .

ـ لم اسمع أبداً عن هذا الكتاب ، أجاب الخفير وقد بدت عليه الغباوة .

ـ هذا لا يدهشني . هناك غيرها لاتعرفها ، أجاب الكاهن المزعوم بجفاء . لكن من المستحيل أن يموت هذا المحكوم عليه المسكين بسلام دون المواسـاة التي يمنحها له هذا الكتاب . ساعة واحدة في قراءة هـذا الكتاب تسـاوي سنة من التوبة . اسرج حصاناً للزنجي سيرافقني عند اخي اسقف .... واحضر الكتاب في الوقت اللازم للمحكوم عليه .

بينما كان الخفير يعطي اوامره ، همس هارفي في أُذُن النقيب .

ـ فكر الآن أن كل شيء يتعلق ببرودة أعصابك لأنني وعدته بإنقاذك وأنا لم أخلف أبداً بوعودي له .

ـ من هذا ؟ سأل هنري بحشرية .

ـ لا أحد أجاب البائع المتجول باقتضاب .

وصلت الخيول وجلس هنري على السرج مُقلداً قدر استطاعته خراقة العجور الزنجي لكن قلبه خفق بسرعة لأنه ما ان ضَمَّ رجليه للإنطلاق حتى وصل نافخ البوق ماسون متوجهاً نحو المنزل وتوقف قربهما ليطرح بعض الأسئلة على الكاهن المزعوم .

أجابه هذا الأخير بمواعظه التقيّة وهو يجلس على السرج بدوره . وخرج المتنكران إلى ساحة المزرعة . في تلك اللحظة صرخ الخفير الواقف عند باب السجن بكل قواه :

ـ يا عريف الحرس ! يا عريف الحرس !

وصل العريف ونافخ البوق في الوقت ذاته إلى قمة الدرج وقد اصابهما الهلع من هذه الصرخات . وجدا الخفير أمام الباب المفتوح قليلاً يغمغم وقد بدا عليه الإرتباك :

ـ لا اعرف ما هذا . لكن للأسير مظهراً غريباً منذ رحيل الواعظ ولا يبدو كما كان من قبل . هذا هو الشعر الأبيض وهذه هي ثيابه الزرقاء المطوية في موضع الجرح لكنه يبدو اقل طولاً واكثر سمنة .

كان النقيب لاوتون اكتشف الخدعة في لحظة ، لكن نافخ البوق لم يكن يملك حساً ثاقباً إلى هذه الدرجة وبعدما نظر بإحتقار إلى داخل الغرفة اكتفى بالإجابة التالية :

ـ لا بُدَّ أن هذا الواعظ ذلك الناسك ، ذاك المتعصب الذي لايُطاق ، اثر على نفسيته بعدما هدّده بجهنم .

ـ يُقال أحياناً ، أجاب الخيـال وهو يتـراجع ويفتـح عينيه من الرعب . أن الخوف يمكن أن يغـير لون الشعر الأسود إلى أبيض لكنني لم أسمع أبداً أنه يستطيع تبديل جلد الانسان من الأبيض إلى الأسود .

كان هذا صحيحاً . فقد قام سيزار الخائف بحركة لا إرادية بعد تلك المحادثة وأصبح جانب من وجهه الأسود بادياً لعيـون الجنود . بقفـزة واحدة انقض ماسون عليه وأمسك الزنجي الذي أخرسه الرعب من عنقه :

ـ من أنت ؟ من أنت بحق الشيطان ؟ زمجر وهو يصدم له رأسه بالحائط عند كل سؤال . أين الضابط الإنكليـزي؟ هل ستتكلم باللعنة ! أجبني أيها الشقي وإلاّ علقتك إلى المشنقة التي أعددناها للجاسوس !

أطلق سيزار الخائف أنيناً فصرخ نافخ البوق وهو يَصّر على أسنانه :

ـ باللسماء ! إنه الزنجي العجوز ! أيها الشقي أين سيدك ؟ من هـو هذا الكاهن المزعوم الوغد ؟

ـ هارفي ، أجاب سيزار وهو يرتجف تحت سيل الضربات التي ينـزلها بـه الضابط الغاضب .

ـ هارفي مَنْ ، أيها الكلب الأسود ؟

ـ هارفي بيرش .

ـ هارفي بيرش ! كرر ماسون وهو يدفع سيـزار بعنفٍ جعله يتدحـرج على الأرض .

واندفع على الدرج صارخاً بكل قواه :

ـ إلى السلاح ! إلى السلاح ! خمسون جنيهاً للقبض على البائع المتجول أو الجـاسوس ! لارحمـة بعد الآن لأي منهمـا . إلى أحصنتكم إلى السلاح وإلى الأحصنة !

الفصل الثاني عشر

كانت أولى ردات فعل هنري عند خروجه من المزرعة إطلاق العنان لحصانه للإبتعاد بأسرع ما يمكن عن أعدائه . لكن بيرش سَدَّ له الطريق قائلاً :

ـ هل تنوي القضاء علينا معاً ؟ ألم تر في ساحة المزرعة مايُقارب ستة خيول كلها مُسرجة وتستطيع بسهولة وببضع قفزات ادراك حصانينا التعيسين هذين ؟

امش مثلي ولا تلتفت إلى الخلف لئلا يرتابوا في شيء .

ضبط هنري بأسف استعجاله ليتبع نصيحة البائع المتجول الحذر .

ـ لكن من المستحيل ، قال ، أن لا يكونوا قد اكتشفوا سيزار بعد . ألا يجدر بنا الهرولة والوصول إلى الغابة بأسرع ما يمكن ؟

ـ لنمشِ الهوينا وإلاّ تكون نهايتنا إنهم يستطيعون إصابتنا ببنادقهم . هيا . انظر إلى الشمال وشاهِدْ المشنقة التي اعدوها لك ،الا يحضك هذا على الحذر ؟

ارتعد النقيب من الرعب . لكن عندما نظر إلى مرافقه رآه يدير رأسه وينظر نحو المزرعة بقلق .

ـ تخلصْ بسرعة من القنـاع والباروكـة . بسرعـة . ارمها عـلى الطريق . سنحتاج إلى كل حيلة ممكنة منذ الآن .

ـ ماذا حدث إذاً ؟ لماذا لا نسرع تواً ؟

ـ هدوءاً أيها النقيب. لقد أُعطي الإنذار لكن الخيالة لا يمتطون خيولهم دون الضابط المسؤول . آه ! هاهو يصل . اطلق العنان لحصانك . إن الخيالة على سروجهم وقد توقف الضابط ليشدّ الأحزمة إنه يتوقع التغلب علينا بسرعته . هيا بنا ، أيها النقيب ! الأمر يتعلق بحياتك . إذا تركتني قُضي عليك .

لم ينتظر هنري كلمة أخرى وضغط بكل قواه على بطن مطيته البائسة . وعلى رغم جهوده بقيت المطية المسكينة التي اطلق لها العنان بعيدة عن حصان بيرش واقترب خيالة فرجينيا بسرعة تدعو إلى القلق .

عندما رأى بيرش أن مرافقه بقي في الخلف توقف لإنتظاره . كانت باروكته وقبعته قد سقطتا عندما انطلق هرولةً فأطلق الجنود صرخات النصر العظيمة عندما عرفوه .

ـ هذا الحيوان البائس مرهق ، صرخ هنري يائساً وهـو يضرب الحيـوان بطرف اللجام. من المستحيل أن يُقاوم عشر دقائق زيادة عن ذلك .

ـ خمس دقائق تكفينا ، إذا تبعت نصائحي .

استعاد هنري شجاعته وتبـع مرافقـه إلى المكان الذي تـرسم فيه الطريق منعطفين متباعدين جـداً الواحد عن الآخـر ، تفصلهما أعشـاب كثيفة . مـرّ

الهاربان كالسهم على طريق اليسار لكن هارفي استفاد من المنعطف الأول ليتوغل في الدغل ويصل إلى طريق اليمين . هذه العملية انقذتهما . تبع الخيالة طريق اليسار مسافة قبل أن يتنبهوا إلى خطئهم وخلال عودتهم إلى طريق اليمين ، إستطاع الهاربان تسلق الجبل والنزول عن الحصانين والإختباء بين العوسج الكثيف بعدما طردا مطيتيهما في الاتجاه المعاكس . مرّ الخيالة كالبرق على مسافة قصيرة من المكان الذي اختبآ فيه وما أن اختفوا حتى نهض البائع المتجول وقاد هنري وسط الصخور .

ـ إنما يمكن أن يحاوطوا الجبل ! صرخ النقيب مهموماً . سيلاحقوننا ويمسكون بنا بسهولة .

ـ لن يفعلوا شيئاً . اجاب هارفي بهدوء عظيم . كيف سيتمكنون من التقدم وسط هذه المتعرجات بأحذيتهم العسكرية ومهاميزهم وسيوفهم ؟ كلا . كلا ، يجب عليهم العودة إلى المخيم وإرسال المشاة للتفتيش بين هذه الصخور والاماكن الوعرة . هيا ! اتبعني . علينا أن نقوم بمسيرة شاقة لكنني سأقودك إلى مكان لن يجدنا فيه أحد هذه الليلة .

لم يلاحظ الخيالة هذه اللعبة إلّا بعدما وجدوا عند أسفل المنخفض الحصانين خائفين دون فارسيهما . كان عليهم العودة على اعقابهم وهمَّتهم مثبطة جمع ماسون المستاء الضباط جميعاً ليتفقوا على تحرك ما .

كانت فرانس ومس بايتون مختبئتين خلف الستائر ، تستمعان إليهم بقلوب واجفة من نافذة تطل فوق رؤوسهم مباشرة .

اتفق الضباط اخيراً على إخطار الرائد دانوودي بما حصل بواسطة رسول ليسرع في عودته ، وأن يرسلوا دوريان في كل الإتجهات في انتظار وصوله وأن ينشروا بين الفلاحين خبر الفرار مع وعدٍ بمكافأة جزيلة لمن يُسَلِّم الهاربين .

خلال هذا الوقت كانت فرانس مستغرقة في افكار عميقة حول البائع المتجول . لم تعد تشك في انه هو من رأته على الجبل . وسيطر عليها شعور بأن اخاها سيختبىء هذه الليلة في الكوخ الغامض. خطرت في بالها خطة جريئة. اخبرت عمتها بها وانتزعت منها الإذن بتنفيذ مشروعها المتهور بتوسلاتها وإلحاحها .

سارت الفتاة ملتفة جيداً في معطفها وقلبها يخفق بقوة بين ضلوعها وتوجهت نحو الصخرة التي لاحظت شكلها الغريب والمتعرج في الصباح نفسه . في اثناء سيرها تسلل نور القمر بين غيمتين واضاءبوضوح شيئاً ما إلى يسارها فارتجفت مصعوقة عند مرآه . كان هذان عمودان مغروزين في الأرض على مسافة قريبة الواحد من الآخر تجمع بينهما عارضة عُلِّق عليها حبل غليظ يتأرجح مع هواء الليل .

ايقظ هذا المشهد الرهيب شجاعة فرانس فعاودت سيرها بإندفاع جديد وسط الصخور والتعاريج المغطاة بالأشواك مباشرة نحو هدفها . امضت ساعة من الوقت في صراع مع المصاعب الكثيرة التي نبتت كالحواجز امامها .

لكن اخيراً ، تكللت شجاعتها بالنجاح ووصلت شبه منهارة من التعب إلى المساحة المسطحة الصغيرة التي تؤلف قمة الجبل .

كان هواء الليل المثلج يصفر بين الأغصان المتكسرة للسنديانة العتيقة. ارتعدت فرانس ونظرت حولها لكنها لم تر الكوخ الذي تبحث عنه في اي مكان، عبثاً تفحصت كل فجوات الصخور كل تضاريس المساحة المسطحة لم تكتشف اي اثر لوجود إنسان ما . تجمد الدم في عروقها عندما فكرت في انها وحيدة تماماً قامت ببضع خطوات نحو طرف الصخرة فشاهدت ويا لشدة دهشتها فتحة عند قدميها يخرج منها دخان حمله الهواء ورات ناراً دافئة مشتعلة في موقدٍ من الحجارة فهمت عندها انها فوق الكوخ الذي تبحث عنه وبعدما تبعت طريقاً صغيراً حوله وصلت امام بابه .

كان هذا كوخاً بائساً مصنوعاً من الواح ضخمة وسُدَّت الاماكن الفارغة فيه بالتراب والأوراق الميتة . لم يكن له إلّا نافذة واحدة حجبت بعناية بلوح خشبي يمنع ضوء النار من الانتشار نحو الخارج . قرّبت عينيها من ثقب فرأت في داخل الكوخ مكاناً وضيعاً للنوم من القش المغطى بغطاء من القماش. وكـانت هناك خزانة مفتوحة فيها بضعة صحون وخبز وقليل من اللحم المجفف ، طاولة وبضعة مقاعد شبه محطمة . غُرزت اوتاد في الحائط تحمل ثياباً من كل الأنواع للنساء والرجال : بينها ثوب للفلاحات وازياء إنكليزية واميركية معُلَّقة بسكون الواحد إلى جانب الآخر .

لكن ما اثار انتباه فرانس خصوصاً كان الشخص الذي يشغل الكوخ والذي لم يكن بالتأكيد اخوها ولا البائع المتجول . كان جالساً أمام الطاولة مُسنداً جبينه إلى يديه منشغلاً بفحص أوراق موضوعة امامه . على الطاولة قبعة مستـديرة ومسدسان مزخرفان وبين رجليه سيف رائع . كان هذا الرجل يرتدي سترة طويلة مزررة حتى الذقن وبنطالاً من جلد الجاموس وجزمة ذات مهماز .

بقيت فرانس محتارة في مكانها وهي التي كانت تنتظر إيجاد أخيها أو هارفي بيرش في الكوخ . فجأة رفع الغريب راسه واضاء لهيب النار القوي ملامحه . عرفت الفتاة فيه وجه مستر هاربرالهادىءوالودود .

ركضت نحو الباب وقد حرّكتها غريزة مفاجئة فتحته وانـدفعت على ركبتي هاربر صارخة :

ـ تذكّر وعودك ! انقذه ، انقذ اخي !

رد فعل الغريب الأول انه أمسك بمسدسيه ، لكن قبعة المعطف الذي كانت ترتديه فرانس سقطت إلى الخلف فقال بلهجة فيها مفاجأة كبيرة :

ـ مس وارتون ! من المستحيل أن تكوني بمفردك ؟

ـ لايوجد هنا معي سوى الله وانت ، أجابت باكية . اتوسل إليك بإسمه القدوس ان تتذكر وعدك بإنقاذ أخي !

ساعد هاربر الفتاة على النهوض واجلسها فأخبرته وهي مضطربة كل ماحصل منذ رحليه عن المنزل . ولم تنسَ أن تشير إلى ثقة دانوودي التي ابداها عندما عَلمِ ان مستر هاربر وعَدَ بحماية هنري .

ـ مس وارتون ، أجابها بعد لحظة من التفكير العميق ، لاجدوى من ان أُخفي عليك أن لا دور لي في هذا الصراع بين اميركا وإنكلترا . لقد اخطأ الراند دانوودي عندما ظَنَّ انني أستطيع ان اطالب صراحة بالعفو عن اخيك . كل ما استطيع القيام به هو السهر على سلامته . اعطيك وعدي وهو ليس دون تأثير ما عند واشنطن بأن اساليب ستُستخدم لكي لا يُقبض عليه مجدداً . لكن يجب ان تعدينني بالحفاظ على الصمت المطبق في ما يتعلق بهذه المقابلة إلى وقت أسمح لك فيه بالكلام عنها .

وعدت فرانس بالحفاظ على السر كما طلب منها . فتابع يقول : سيصل اخوك إلى هنا مع ذلك الذي انقذه . لكن يجب ان لايراني . هذه الحرب ليست لعبة اطفال، إذا عرف الإنكليز ان بيرش يتعاطى معي لا شيء يمكن ان يُنقذ حياته. يجب إذاً ان تحضي اخاك على اجتياز آخر الحواجز الأميركية قبل طلوع الضوء وسأحرص على إغراق دانوودي بمشاغل تفرحه اكثر من مسألة تهديد حياة صديقه .

بينما كان مستر هاربر يتكلم طوى اوراقه ووضعها في جيوبه . عندها سُمع صوت البائع المتجول الذي يتكلم بصوت مرتفع :

ـ من هنا ، أيها النقيب وارتون ، من هنا ! ليلاحقوك الآن ! نحن في أمان . لدي بعض المُؤن وملجأ جيداً . انقطع كلامه بسعال عنيف ، فوضع مستر هاربر إصبعه على شفتيه ومو ينظر إلى فرانس وكأنه تلقى إشارة ما اخذ قبعته

ومسدسيه وانسحب إلى تجويف صغير حيث اختفى في إحدى زوايا الكوخ ، خلف الثياب التي تستره عن كل الأعين.في تلك اللحظة دخل بيرش وهنري وارتمت فرانس باكية لتعانق أخاها .

بدا البائع المتجول غير راض عن رؤيتها . نظر حواليه بقلق وسأل :

ـ هل أنت بمفردك مس فرانس ؟ لم تأت إلى هنا بمفردك أليس كذلك ؟

ـ كما ترى ياسيد بيرش ، أجابت الفتاة وهي تدير ظهرها قليلاً صوب أخيها وتنظر إلى المخبأ السرّي بنظرة فهمها بيرش جيداً .

طلب منها هنري تفسيراً عن طريقة مجيئها وهو مدهوش فأخبرته كيف رأت الكوخ عند مغيب الشمس في الليلة السابقة .

وتوقعت إيجاد الهاربين في هذا المأوى . عندما رأت قلق بيرش لأن مخبأه قد اكتُشف وعدته بالحفاظ على السر تماماً بعيداً عن الجميع وحتى عن الرائد دانوودي . أخيراً ، توسلت إلى أخيها كي ينصرف تواً حتى يستبق كل الإجراءات التي يُمكن أن تُتخذ لمنع فراره .

أخذ النقيب محفظته وكتب بضع كلمات بالقلم على ورقة طواها وأعطاها لأخته :

ـ فرانس ، قال لها ، لقد برهنت أنك إمراة لاتضاهى . إذا كنت تحبينني إعطي هذه الورقة لدانوودي دون أن تفتحيها وتذكري أن مهلة ساعتين يمكن أن تُنقذ حياتي .

ـ سأفعل ذلك ! ضرخت قائلة . لكنني اتوسل إليك أن تهرب دون تأخير ، لا تضيع لحظة واحدة .

ـ أختك على حق أيها النقيب ، تدخل البائع المتجول الذي كان قد تسلل دون أن يراه أحد إلى المخبأ السري . لقد تزودت بالطعام وسنأكل خلال مسيرتنا .

ـ لكن من سيتولى مرافقة أختي حتى تصل بسلام ؟ لا أستطيع أن أتركها

بمفردها في هذا المكان المقفر .

توسلت إليه فرانس .

ـ إذهب أستحلفك بالله ، سأعود بأمان كما أتيت .

انضم بيرش إليها فرضخ هنري لإلحاحها وبدأ الهاربان ينحدران الجبل نزولاً .

ما أن انطفأ وقع خطواتهما في البعيد حتى ظهر هاربر مجدداً وامسك ذراع فرانس وقادها إلى خارج الكوخ . بدا أن الطريق مألوفة بالنسبة إليه قاد مرافقته في الدروب الأكثر أماناً والأقصر من المتعرجات الصخرية التي أتت عليها . بعد قليل من الوقت وصلا إلى سفح الجبل . وبعدما قطع بسرعة الحقول وصل إلى وهدة ربط فيها حصاناً مُسرجاً بثراء . صهل الحيوان الجميل عندما رأى صاحبه الذي وضع مسدسيه في سرجه .

استدار مستر هاربر نحو فرانس وقال :

ـ مس وارتون ، لقد انقذت أخاك هذه الليلة . لا أستطيع أن أشرح لك لماذا لا أستطيع خدمته علناً . لكن إذا إستطعت أن تؤخري انطلاق الخيالة ساعتين إطمئنك إلى سلامته . لم يمنحني الرب ابنة كانت لي واحدة لوددت ان تشابهك . لكنك ابنتي كما هم كل سكان هذه البلاد . وداعاً . خذي مباركة من جندي ولا تتذكرينني إلاّ في صلواتك .

انحنى وطبع قبلة أبوية على خد فرانس التي نظرت إليه بعينين مملوءتين بالدموع .

امتطى هاربر حصانه ، حيّا الفتاة بنزع قبعته عن رأسه بتهذيب وعذوبة واختفى وسط الأشجار بقيت فرانس في المكان نفسه وقلبها يخفق من التأثر حتى إبتعد صدى حوافر الحصان . عندها عاودت سيرها فوصلت إلى المزرعة وتسللت إليها بهدوء دون أن يراها أحد .

عندما انضمت فرانس إلى عمتها علمت أن دانوودي لم يكن في طريق العودة . . سألت هذه الأخيرة ابنة أخيها إن كانت قد نجحت في مهمتها فأجابت الفتاة ماطة أنها وعدت بكتمان السر . لكن الابتسامة التي تضيء وجهها كانت كافية نة العمة الطيبة .

حينئذ سَمع وَقْع أقدام حصان وخطوات دانـوودي المعروفـة تُسرع عـلى رج . خفق قلب فرانس بشدّة : كان عليها أن تربح ساعتين لتوفر الأمـان اربين .

ـ أي تهور هذا يا فرانس ! صرخ الرائد وهو يرتمي على كُرسيّ مضطرباً . أن ب بهذه الطريقة في الوقت الذي طمأنته فيه إلى أنه ليس هناك مايخشاه !

ـ ألست مسروراً لكون أخي قد أفلت من الموت ؟

اخي ؟

ـ لا تخشي عليه ياحبيبتي . كل شعرة في راسه مُصانة لكن عليه أن يعـود اسيراً ، وماسون ، لاينتظر إلّا اوامري لإمتطـاء حصانه . سأتركك إذاً رغماً عني ، لكننا نضيع لحظات ثمينة .

توقف ، أرجوك ! قالت وهي تنظر بقلق إلى ساعة الحائط . قبل أن ترحل إقرا هذه الرسالة بإعتبارك صديقه المخلص .

ـ وانا كذلك فعلياً ، اجاب الراند بحرارة . لكن اين وجدت هذه الورقة ؟ يا هنري المسكين ! نعم انت حقاً صديقي انت الذي ترغب في رؤيتي سعيداً .

ـ الا ارغب في ذلك انا ايضاً ؟ تمتمت فرانس .

ـ والحال هذه اقرايها بنفسك واثبتي لي انك قلت الحقيقة ، صرخ دانوودي وهو يناولها الورقة .

قرات الفتاة بتاثر ، ما يأتي :

، الحياة غالية جداً كي نفقدها في آمال واهية . اتركك الآن يـا دانوودي سيزار هو الشاهد الوحيد على فراري واطلب منك الإشفاق عليه. لكن القلق على اهلي يعتريني . اثبت لي انهم يستطيعون الإعتماد على حمايتك بأن تتزوج من فرانس هذه الليلة لكي تجد عائلتي فيك ابناً واخاً وزوجاً ، .

سقطت الرسالة من يد فرانس التي كان دانوودي يرمقها بنظرات عاشقة .

ـ لمـاذا التأخـير ياحبيبتي ؟ دقـائق يمكن أن تمنحني لقب زوج من اجـل حمايتك.

توردت فرانس دون أن تجيب فاعتبر دانوودي صمتها موافقة وذهب لإحضار مس بايتون .

ـ إنتظر ! صرخت . لااستطيع خداعك الآن وقد قررت أن اقوم برباط مُبَجَّل . لقد رايت هنري بعد فراره . كل ما يحتاج إليه ليصل إلى الأمان هو وقت قليل . ها هي يدي أعطيك إياها بإرادتي إذا لم تكن تحتقرها .

ـ اتلقاها كأنها أجمل هدية من السماء، صرخ الرائد وهو يقبلها بحنان . غداً عند الظهر سأعود مع ورقة إسترحام موقعّة بيد ، واشنطن ، من أجل هنري وسيشارك أخوك في حفلة زفافنا .

تلقى مستر وارتون واخته بدهشة الخبر أن الشابين يريدان الزواج في الحال . لكن فرانس صرحت بحزم ونعومة انها اتخذت قرارها منذ وقت طويل وان زواجها لم يتاخر إلّا بناءً على رغبتها وانها الآن منحت خطيبها وعداً ستقوم بتنفيذه . ذهبوا لإحضار الكاهن فوضعت الفتاة في يده بصمت خاتم الزواج الذي ورثته عن امها .

انتهت المراسيم بسرعة . لكنها دامت الوقت اللازم لسلامة الهاربين . فتَلَقّت عندها فرانس بوجه يشّع فرحاً تهاني اهلها . أعطى دانوودي الأوامر الضرورية إلى نافخ البوق ماسون للإنطلاق. واستدارت الفتاة نحوه قائلة :

ـ فكّر الآن أنك تلاحق أخيك الحقيقي . لم أعد في حاجة لاسترحامك من أجله لو شاء الحظ أن تقبض عليه .

ـ بل قولي إذا شاء الحظ الحسن ، يا فرانس العزيزة . لأنني مصمم على رؤيته يرقص في حفلة زواجنا . الا استطيع استمالته إلى جانبنا ! فهذه قضية بلاده أيضاً .

حينئذٍ ، سمع طرق على الباب وأُدخِل ضابط يرتدي ثياب مرافق . تعرف

الرائد إليه لأنه رآه إلى جانب « واشنطن » . وكان يحمل في الحقيقة رسالة من قائد الجيش :

« ايها الرائد دانوودي في اللحظة التي تتلقى فيها هذه الرسالة المستعجلة تقود فرقتك لتكون غداً في الساعة العاشرة صباحاً على مرتفعات « كروتون » . في مواجهة مفرزة للعدو تسيطر عليها . ستجد هناك جيشاً من المشاة لمساندتك . لقد تلقيت تقريراً عن فرار الجاسوس الإنكليزي . توقيفه لا أهمية له نظراً إلى الواجب الذي آمرك بإتمامه . إذا كان بعضٌ من رجالك يلاحقونه استدعيهم حالا ولا تهدر دقيقة واحدة لتنطلق لمحاربة العدو ـ جورج واشنطن » .

ارتمت فرانس بين ذراعي الرائد وقد توزعت مشاعرها بين الفرح لأن هاربر حافظ على وعده وخوفها من المخاطر الجديدة التي سيقاسيها زوجها . قبّلها دانوودي بحنان وانطلق مباشرة لإطاعة الأوامر التي تلقاها .

بينما تجري هذه الأحداث ، كان البائع المتجول والنقيب وارتون ينزلان إلى الوادي دون أن يسمعا أية ضجة من اي جهة . لكن من وقت إلى آخر وعندما يقتربان من اي حاجز للجيش الأميركي من الحواجز التي كانت منتشرة بأعداد كبيرة في الجبل ، كان هارفي يقوم بالتفاف كبير لتجنبه . كان يتوغل بين النباتات الكثيفة أو يمر على جوانب ساقية ما . أخيراً بعدما سارا نحو ثلاث ساعات اقترح البائع المتجول أن يتوقفا لإستعادة قواهما وأكل المؤنة التي تزودّا بها .

ـ لقد قلت لي بنفسك انه من المهم أن نسبقهم بساعتين أعطى هنري ملاحظته هذه بتردد . إذا توقفنا الآن سنفقد المدة التي ربحناها .

ـ لقد انتهت هاتان الساعتان يا نقيب ، والرائد دانوودي لم يعد يفكر في ملاحقة رجلين بينما يوجد المئات ينتظرونه في ناحية كروتون .

ـ اصمت يا بيرش ، إسمع ! سمعت كأن فرقة خيالة تمّر خلف هذه

الصخور. إنهم يضحكون ويتحدثون. لكن! اهذا صوت دانوودي؟ يبدو أنه لا يهتم ابداً بالمخاطر التي يعانيها صديقه القديم . لابُدَّ ان فرانس لم تعطه رسالتي !

ـ هيا يا نقيب لاسبب يدعوك إلى القلق الآن . ليس النقيب دانوودي من الرجال الذين يضحكون ويمازحون عندما يعرفون ان أصدقاءهم في خطر . كُلْ هذه القطعة ايضاً . لن نلتقي بالخيالة لكن علينا القيام بمسيرة طويلة قبل طلوع الضوء .

سارا وتقدما لساعتين وهما يقومان بالتفافات كثيرة . لتجنب اي لقاء غير منتظر . غاب القمر وبدا الفجر يلوح في السماء فتجرا هنري على الأعتراف بتعبه .

سأل مرافقه هل يمكنهما الإستراحة في إحدى المزارع دون مخاطرة .

ـ انظر هناك . اجاب هارفي بيرش ، وهو يدّله على تلة قريبة . هل ترى هذا الرجل الذي يتجول على قمة الصخرة ؟ إنه خفير من الجيوش الملكية .

ـ والحال هذه . لننضم إلى ذلك المركز وننجو بانفسنا .

ـ هدوءاً أيها النقيب . قال البائع المتجول بصوت صارم . لقد سَبَق وكنت مرة وسط ثلاثمئة رجل من الجيش الملكي واتى من الصفوف المعادية رجل أوقفك . هل نسيت انك على قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة ؟

كلا ، كلا . لقد وعدت احدهم بأنني سأضمن سلامتك وسأفعل ذلك .

ـ لكن ...

ـ هل نسيت المخاطر التي تهددتني من أجلك أيها النقيب ؟ هيا . استدر إلى هذه الناحية واتبعني إلى هارلم .

أطاع هنري رغم انفه الضغط الذي مارسه مرافقه عليه . ووصلا معاً إلى

ضفاف « الهودسون » فاجتازاه بمعاونة احد اصحاب الزوارق الذي يعرفه بيرش. نزلا من الزورق جنوب « الكروتون » وهناك قال البائع المتجول انهما اصبحا في امان . جلساً قرب غابة صغيرة من السرو وشَرَعاً بتناول الفطور . بينما هما يأكلان سمعت طلقات بنادق في البعيد .

ـ إن جنودنا يتعاركون مع الثوار ! صرخ هنري وهو ينهض قفزاً . انا مستعد لتقديم ستة اشهر من سلامتي كي اشارك في هذا الهجوم .. لكنني لا احب هذه الطلقات المتفرقة .

إنها لاتشابه طلقات المناوشات .

ـ كلا ، كلا ، إنها ليست مناوشات ، تمتم هارفي بيرش وهو يستمع بإنتباه هؤلاء المسلحون افضل من افضل فرقة في الجيش الملكي .

ـ انت تتكلم كأنك تتمنى لهم الانتصار ، صرخ هنري وقد ساء مزاجه .

ـ اتمنى النصر للقضية العادلة ايها النقيب ، قال البائع المتجول وقد غابت الحماسة عن مظهره وظهرت عليه اللامبالاة . كنت اعتقد انك تعرفني كفاية لتعرف اي جانب أُحبِّذُ انا .

ـ اعرف انك تُعتبر ملكياً مخلصاً . لكن .. ما هذا ؟

خرج رجل مسلح ببندقية من الغابة الصغيرة وتقدم نحوهما بحذر . كان أول رد فعل من بيرش الذي تأمله بإنتباه هي الهرب . لكنه عاد وتوقف وتأمل الغريب بصمت حزين .

ـ يا صديقي ! قال الرجل وهو يتوقف على مسافة قصيرة .

ـ انسحب من هنا! صرخ بيرش بصوت عالٍ . لم نعد هنا في جوار خيالة دانوودي ولن تستطيع بيعي مرة اخرى .

ـ ليذهب خيالة دانوودي إلى الشيطان ، اجاب زعيم الجزارين ، لأن هذا

الرجل كان هو . عاش الملك جورج ! فقط لو تمنحني طريقة ما لإنضم إلى الجيش الملكي بأمان سأدفع لك كثيراً يا سيد بيرش .

بعد لقاء قصير مع الشقي اذن له هنري بمرافقتهما شَرْطَ ان يسلّم سلاحه . رضي بذلك دون صعوبة واستولى هارفي على البندقية بإستعجال بعدما تأكد انها محشوّة برصاصة .

قاد بيرش مرافقيه على جانب ضفة النهر حيث يرسو مركب حربي . عَرَّف هنري عن نفسه وتلقى إذناً بالصعود على المتن . لم ينفصل عن البائع المتجول دون أن يشكره بحرارة ويقدم له صرة ملأنة . كان هذا خِذقاً فدّسها تحت ثيابه دون أن يراه الجزار .

عندها عاود هارفي ومرافقه المزعج مسيرتهما . لكن عند مفترق إحدى الطرق وجدا ، على غير انتظار ، انهما امام جيش من القناصة ينتمون إلى الحزب الملكي وهم في صفوفه على مثال الجزارين في صفوف الأميركيين . كانوا يحملون إسم « فاشيرز »

ـ ها انتما ! صرخ زعيمهم عندما راهما ، من انتما ؟ إلى اين تذهبان ؟ هل يمكن ان تكونا جاسوسين لواشنطن ؟

ـ لست سوى بائع متجول فقير وبفضل هذه الورقة اعتقد ان لي الحق في المرور اينما كان ، اجاب بيرش تملؤه الثقة . مدّ للضابط تصريحاً بالمرور . تفحصه هذا الأخير بإنتباه وقال لجنوده :

ـ اتركوا هذا الرجل الشجاع يمر . لكن انت ، من انت ؟ لم أجد إسمك على الورقة .

ـ كلا يا سيد ، اجاب الجزار بتذلل . انا رجل مسكين اضاع طريقه . لقد خدمت في جيش الثوار لكنني عرفت خطأي واريد التكفير عنه بالإنضواء تحت لوائكم .

ـ هارب من الجيش ! لا يهمنا ابداً ان نُدخل أشقياء مثلك إلى صفوفنا . لكن امْشِ إلى الامام سنجد ما نفعله بك قبل ان يمضي وقت طويل .

اطاع الجزار هذا الامر . لكنه لم يتأخر عن ملاحظة ان الضابط والرقيب في « الفاشيرز » يتحاوران بصوت منخفض ويرمقانه بنظرات عدة بدا له أنها تحمل وعيداً .

كانوا قد وصلوا امام مخزن متهدم قد انتزع قسم من سقفه فظهر الخراب في داخله . اشار الضابط فدخلت المجموعة الصغيرة إلى المخزن وسحب الرقيب من جيبه حبلاً ، عَمِل ببرودة اعصاب عظيمة على تثبيته إلى عارضة في الداخل . ثم ازاح إلى تحتها برميلاً صغيراً مثقوباً متروكاً في المخزن .

ـ تقدم ، قال الضابط للجزار ، الذي كان ينظر مدهوشاً ومتيقظاً إلى هذه التحضيرات .

في لمح البصر انتزعوا ربطة عنقه وصنعوا عقدة حسب قياس رقبته وأمروه بالصعود على البرميل بعدما وضعوا فوقه حشبة مسطحة .

ـ ماذا تريدون ان تفعلوا بي ؟ صرخ الشقي مرعوباً .

ـ ماذا حصل بالحصان الذي سرقته منى ايها اللص ؟ اجاب الضابط بصوت كالرعد ، انصحك بإستغفار ربك لأنك لن تبقى طويلاً في هذا العالم .

بضربة من قدمه انقلب البرميل وبقي الجزار معلقاً في الهواء . ضاعت صرخات إحتضاره وسط ضجة الجنود الذين امتطوا احصنتهم وعاودوا مسيرهم .

خلال هذا الوقت كانت فرق دانوودي ولاوتون قد التحمت مع الجيش الملكي . منذ الفجر كانت الأبواق تدّوي في الجيشين بحماسة متعادلة. كان الاميركيون اكثر عدداً ، لكن بالنسبة إلى التدريب والأسلحة كان التفوق كاملاً للإنكليز .

مرتان انكفأ الأميركيون بسبب نارهم الصالية . بينما كان لاوتون يعيد جنوده المشتتين إلى المعركة تلقى في صدره طلقات بندقية وسقط ببطء إلى الخلف كما تسقط شجرة صنوبر ضخمة تحت ضربات الفأس . إنما بقيت يده مشدودة إلى مقبض سيفه والكلمات التي رددها مرة أخرى بصوت قوي « إلى الأمام ! » كانت آخر ما تلفظ به فمه . لفظ انفاسه بين ذراعي بيتي فلاغانون والطبيب سيتيعرايف الذي ركض إلى ميدان المعركة ما أن انحرف هجوم الخيالة نحو الجهة الأخرى .

في اللحظة نفسها تقريباً وصل دانوودي على راس خيالة من فرجينيا . ما أن رأى الجسد حتى عرف بموت صديقه ، توقف ، نزل أرضاً واقترب بتأثر عميق .

ـ سيتيغرايف ، قال بصوت مرتجف ، أريدك أن تعتني بما تبقى من صديقنا . سأهتم بالإنتقام له .

بينما كان يتكلم كان جسد لاوتون مُعرضاً لنظرات كل الجيش . والخيالة هزّهم غضب هائل عند رؤية ضابطهم ممدداً ميتاً فهجموا بإمرة الراند هجوماً إخترق صفوف الإنكليز . فتلقى هؤلاء الهجوم بحرابهم أولاً ، بينما كان الصفان الثاني والثالث يُفرغان ذخيرة بنادقهم معاً . سقط دانوودي ومعه الكثير من الخيالة . الباقون تراجعوا في فوضى . لكن العدو انهزم منسحباً عندما توقف الأميركيون عن ملاحقته ، تاركاً لهم ميدان المعركة .

أرسل واشنطن بعدها جيوشه إلى أماكن أخرى ، ونال دانوودي الذي تحسنت حاله بفضل عناية فرانس المتفانية نال رتبة مُقدم . اخطر هنري أهله بأنه انضم إلى فرقته بسلام وعلموا بأن الكولونيل « ويللمير » ابحر إلى انكلترا بعدما اظهرله الجميع احتقارهم .

خلال السنوات اللاحقة انتزع الأميركيون وحلفاؤهم الفرنسيون إنتصارت باهرة ، حتى اعلنوا النهاية القريبة للحرب .

في نهاية يوم جميل من ايلول (سبتمبر) كان عدد كبير من ضباط الجيش الاميركي من ذوي الرتب العالية مجتمعين في مدينة « جيرسي » وكانوا يُظهرون احتراماً خاصاً لواحد منهم ثيابه متواضعة ، لكنه يحمل شارات القائد ويمتطي حصان سباق بُنّي رائع . لا احد كان يكلمه إلا بإجلال مع إظهار احترام بالغ . اخيراً صَرف كل من حوله ولم يحتفظ إلى جانبه . إلّا بمرافق واحد . ثم نزل عن الحصان ودخل إلى البيت الذي كان مركز القيادة العامة . فيه ظَلَّ مفكراً وصامتاً لحظة ثم سأل مرافقه :

ـ هل وصل الرجل الذي انتظره ؟

ـ إنه ينتظر إذناً من سعادتك .

ـ ادخله من فضلك واتركني معه بمفردي .

انحنى المرافق وادخل إلى الغرفة رجلاً متواضع الثياب وانسحب مغلقاً الباب .

اشار الجنرال إلى الرجل بالإقتراب وسحب من صندوق موضوع على الطاولة كيساً يبدو ثقيلاً .

ـ هارفي بيرش ، قال له ، لقد حانت اللحظة التي يجب أن تتوقف فيها العلاقات بيننا .

نظر البائع المتجول إلى الجنرال وعلامات الدهشة والحزن على وجهه وأجاب :

ـ انني طوع إرادة سعادتك .

ـ إنها الضرورة التي تفترض ذلك . إن أياً من الرجال الذين خدمونا لم يحصل على الثقة التي اوليتك إياها ، لأنني قَدَّرتُ سريعاً اخلاقك التي لم تخذلني ابداً .

لقد خدمت قضيتنا بإخلاص دائم . كنت معروفاً كجاسوس في خدمة العدو

لكنك لم تقدم إليه ابداً سوى ما سمحت لك بتمريره إليه . أنا وحدي في العالم كله اعرف انك تصرفت دائماً بتفانٍ كاملٍ من اجل حرية اميركا .

بينما كان يتكلم انتصب البائع المتجول شيئاً فشيئاً وظهرت على وجهه المتأثر تعابير الفخر البالغ .

ـ واجبي يفرض عليّ الآن مكافأتك على خدماتك . لقد رفضت حتى الآن قبول اي راتب ودَيْنُنا اصبح كبيراً . خذ هذا إذاً وإذا بدا لك التعويض قليل القدر بالنسبة إلى خدماتك تَذَكَّر أن بلادنا فقيرة .

مدّ له الكيس المملوء ذهباً لكن بيرش رفض قبوله وتراجع خطوة إلى الوراء كأنه يخشى أن يلطخ نفسه إن مَسَّه .

ـ ابداً ! صرخ بقوة . هل تعتقد إذاً انني تصرفت هكذا من اجل المال ؟

ـ لكن ماذا كان دافعك ؟

ـ واي دافعٍ جعل سعادتك تحمل السلاح ؟

لن امسَّ دولاراً واحداً من الذهب الذي تقدمه إليّ . اميركا الفقيرة في حاجة لكل شيء .

افلت الكيس من يدي الجنرال، سقط عند أقدام البائع المتجول وبقي منسياً على الأرض خلال المقابلة .

ـ لقد مضى ربيع عمرك . ستُفاجئك الكهولة . بأية طريقة ستتمكن من العيش ؟

ـ بهاتين ، أجاب البائع المتجول وهو يمدّ يديّه الخشنتين بسبب العمل .

ـ لكن يوجد رجال محترمون ترتبط ثرواتهم وحياتهم بكتمانك للأسرار ، انت الذي تحمل الكثير منها . اية ضمانة لوفائك يمكن ان اقدمها اليهم ؟

ـ قل لهم ، أجاب هارفي بيرش بترفع ، انه رفض قبول المال . اضاعت

ابتسامة طيبة وجه الجنرال الساكن .

ـ هارفي ، قال له . تذكر إذاً انني سأبقى دوماً صديقك . لاتتردد عن التوجه إليّ إن إحتجت إلى شيء. فسأكون مستعداً دائماً لمقاسمتك كل مـــا يمنحني إياه الرب .

تعال إلى ذلك الذي قابلته غالباً تحت اسم مزعوم هو هاربر ولن يخجل ابداً لأنه عرفك يوماً .

ـ أن اعرف أن سعادتك يمنحني صداقته . صرخ البائع المتجـول ووجهه يشعّ بالفرحة . هو فخر اقدره اكثر من ذهب كل كنوز انكلترا .

فكر الجنرال لحظات بصمت . ثم جذب نحوه ورقة وقال لهارفي :

ـ لا بد أن هذه البلاد مدعوة إلى مصير عظيم لانها استطاعت أن تخلق في قلوب اطفالها وطنية كتلك التي تحملها في قلبك . لااستطيـع الآن ان انصفك عَلَناً . لكنني سأقدم لك من اجل إستقامتك شهادة تقدير تُثْبتُ في المستقبل حقيقة الرجل الذي ظنّه الجميع جاسوساً لإنكلترا .

كتب هاربر بيد واثقة السطور التالية :

• إن اسباباً سياسية ذات اهمية كبيرة تتعلق بثروة وحياة اشخاص عديدين اجبرتنا على كتمان السر الذي سنصرح به . حتى الآن . لقد كان هارفي بيرش دائماً خادمـاً مخلصاً لوطنـه ومجرداً من المنفعـة الشخصية . ليمنحـه الرب التعويض الذي لم يحصل عليه من الناس ـ جورج واشنطن • .

إنتهى

دار الحداثة

للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت

ص.ب. ١١٣/٥٣٣٥

صدر حديثاً:

روايات - قصص - شعر - سينما

- مسرات حجرية (شعر) ..... نادر هدى
- نوار اللوز (رواية) ..... واسيني الأعرج
- لغة الجنوب (شعر) ..... فرحان صالح
- في وقتك الليلكي هذا انخطافي (شعر) ..... محمد الطوبي
- احزان مرئية (شعر) ..... كامل صالح
- مصرع احلام مريم الوديعة (رواية) ..... واسيني الأعرج
- مدينة الغد (شعر) ..... عبد الله البردوني
- السفر إلى الأيام الخضر (شعر) ..... عبد الله البردوني
- النوم رماد اليقظة (شعر) ..... سعد كموني
- وجوه دخانية في مرايا الليل ..... عبد الله البردوني
- العين والجناح (شعر) ..... د. مصطفى حركات
- ايقاعات للزمان والمكان (شعر) ..... عبد الصمد القليبي
- صوت الكهف (رواية) ..... د. عبد الملك مرتاض
- مرثاة عدو الشمس (شعر) ..... اسماعيل الوريث
- لعيني ام بلقيس (شعر) ..... عبد الله البردوني
- زمان بلا نوعية (شعر) ..... عبد الله البردوني
- كائنات الشوق الاخر (شعر) ..... عبد الله البردوني

قضايا ادبية ـ فكرية

■ كتاب الطواف ..... محمد علي شمس الدين
■ هموم الثقافة العربية ..... اعداد وتقديم فرحان صالح
■ السير والملاحم الشعبية العربية ..... شوقي عبد الحكيم
■ مهذب رحلة ابن بطوطة ١/ ٢ ..... تقديم أحمد عبيدلي
■ الفن والحس ..... ميشال ديرميه ـ ترجمة وجيه البعيني
■ جدلية العلاقة بين الفكر العربي والتراث ..... فرحان صالح
■ في نظرية الادب د. شكري ماضي
■ البدايات الجنوبية ..... د. عبد العزيز المقالح
■ المادية التاريخية والوعي القومي عند العرب ..... فرحان صالح
■ شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة ..... د. عبد السلام الشاذلي
■ حول قضايا التغريب والتجريب في الادب العربي المعاصر
د. عبد السلام الشاذلي
■ الممارسة النقدية ..... بيلنسكي ـ ترجمة د. فؤاد مرعي ـ مالك صقور
■ الشعر الشعبي الفولكلوري عند العرب ..... شوقي عبد الحكيم
■ الطفل العربي وثقافة المجتمع ..... ذكاء الحر الخطيب
■ الصراع الادبي مع الشعوبية ..... الجاحظ ـ الشاعر القروي . محمد علي الخطيب
■ السمات الواقعية للتجربة الشعرية الجزائرية زينب الاعوج
■ الأسس النظرية في مناهج البحث الادبي العربي الحديث د. عبد السلام الشاذلي
■ كنوز الاشعار الذهبية . مختارات من الشعر الانكليزي ... ترجمة حكمت تلحوق
■ علم الجمال ..... هنري لوفيفر
■ اثر الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم ..... نسعديت آيت حمودي
■ بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ ..... د. بدري عثمان
■ فصول في النقد ..... غالب هلسا
■ الآداب السامية مع بحث مستفيض عن اللغة العربية ..... محمد عطية الابراشي
■ النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب د. محمد الصغير البناني
■ الشعر في إطار العصر الثوري ..... د. عز الدين اسماعيل
■ INTRODUCTION à La MODERNITE ARABE ..... Nassim Khoury
■ إضاءة النص ـ قراءات في شعر ادونيس محمود درويش . سعدي يوسف . عبد الوهاب البياتي . أمل دنقل . محمد عفيفي مطر . احمد عبد المعطي حجازي تأليف اعتدال عثمان

إقـــرأ :

مجموعة روائع الأدب البوليسي

١ أغاتا كريستي
٢ جيمس هادلي تشيز
٣ جورج سيمنون
٤ مَن القاتِل
٥ باقَة مِن الجرائم
٦ الجرائِم الغامضَة
٧ المجْرم السَاذج
٨ دَوافع الجريمَة
٩ اليَد الخفيّة

سلسلة الحداثة للفتيان

من منشوراتنا الجديدة

- ☐ الرسم حسب الطبيعة
- ☐ التلوين المائي وتقنيته
- ☐ تقنية الرسم الزيتي
- ☐ الرسم بالريشة
- ☐ رسم جسم الانسان

دار الهيثم
ص . ب ٥٣٣٥ / ١١٣
بيروت ـ لبنان

من منشوراتنا الجديدة

- من أنا ؟
- أنظر وتعلّم
- عجائب الرياضيات
- مبادىء الطاقة الشمسية
- الموسوعة المصوّرة للأطفال

دار الهيثم
ص . ب ٥٣٣٥ / ١١٣
بيروت ـ لبنان

مجموعة أشهر القصص البوليسية

صائد الأُسُد

تأليف : ف . كوبر
ترجمة : مي الياس باسيل

السجن العائم

تأليف : لويس غارنيراي
ترجمة : مي الياس باسيل

السهم الأسود

تأليف : ر . ل . ستيفنسون
ترجمة : مي الياس باسيل

قراصنة المسيسبي

تأليف : فريدريك جرستيكر
ترجمة : مي الياس باسيل

الجاسوس

تأليف : ف . كوبر
ترجمة : مي الياس باسيل